الحكايات المُخبَّأة في الأصابع

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2019/10/5217

813.9
كيالي، محمد نجيب
الحكايات المخبأة في الأصابع – محمد نجيب كيالي – عمان: دار فضاءات، 2019
الواصفات: /القصص العربية//الأدب العربي//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-33-037-1

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

الحكايات المخبأة في الأصابع – محمد نجيب كيالي – سوريا
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website:http://www.darfadaat4publishing.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

نجيب كيَّالي

الحكايات المُخبَّأة في الأصابع

قصص قصيرة

فضاءات
للنشر والتوزيع

أغنية لم تتكوَّنْ بعد

مع هطولِ الثلج خرجَ أبٌ من البيت.

في يده صفيحةُ وَقودٍ فارغة.

الصفيحةُ مثلُهُ كانت تهمس: أحْ.. أحْ.

الأبُ لا يعرف أين يكون الوقود في مثلِ هذا اليوم، وليس معه ليرة واحدة، لكنَّ ارتجافَ أولاده وأمهم جعلَهُ يخرجُ متجهاً إلى المجهول!

لحقَهُ ابنُهُ الصغير، لم يكنْ يريدُهُ أن يذهبَ معه، لكنَّ الصغير تعلَّقَ ببنطاله، وكأنَّ مسيرَهُ بجانبه سينسيه برودةَ البيت.

سار الاثنان فوقَ امتدادٍ أبيض. خطواتهما فوقه كتبتْ قصةَ شقاءِ أسرة سورية في أيام الحرب.

ابتعد الأبُ وصغيره أكثرَ مما ينبغي، ربما كان الأبُ يحلم أنْ يجدَ مَنْ يملأ له الصفيحة بالدَّيْن أو أنَّ الرحمة ستأتيه من السماء على شكلِ وَقودِ مدفأة.

فجأةً اشتدَّ هطول الثلج، لجأ الاثنان إلى تحتِ عربةٍ زراعية.

ساعةٌ.. ساعتان. ارتفعتْ حِدَّةُ الهطول بصورة مخيفة. احمرَّ وجه الصغير، ثم بدأ يميل إلى الزرقة. احتضنه أبوه بخوف جاعلاً من جسمه مدفأةً له أو سوراً بينه وبين الموت الزاحفِ إليهما ببطء.

صار الانهارُ وحشياً!

تأوهتِ العربة، تمنَّتْ أن يشتعل خشبُها لتقدِّمَ للاجئَيْنِ تحتها شيئاً من الدفء.

في العاشرة ليلاً مات الأبُ متجمداً.

بعده بدقائق مات الصغير. أطالَ عمرَهُ قليلاً جسدُ والده الذي يحميه.

ارتفعت الروحان في الفضاء. كانتا باردتين، عاريتين. بكى عليهما قلبُ الليل. قال:

- أريد أغنية يا رب تُصوِّرُ ما حدثَ لهما. أنا أؤمنُ بالأغاني.

وصلَ صوتُ الليل إلى ملكوت الغناء، فتحركتْ أنغامٌ شاردة، راحتْ وجاءت تبحثُ عن فنانٍ يجعل منها أغنية.

***

الحكايات المخبَّأة في الأصابع

ترتمي فتحية في فراشها حائطاً من تعب!

أنغامُ شخيرها: (قرقرة، خرخرة، ضجيج)، ينقلب السلَّمُ الموسيقيُّ أحياناً إلى: (ضجيج، خرخرة، قرقرة). الأنغام تؤكد ما تعانيه أثناء النهار بين خدمة الأولاد والخدمة في بيوت الناس!

رؤوسُ أصابعها مسلوخة، منها تخرج الحكاياتُ المُرَّة.

تمشي الحكايات بحذر في الغرفة قرب الأولاد الخمسة الذين تربيهم فتحية، تتسلل من النافذة، تتحرك في الزقاق الضيق حيث تعيش المرأة التي تجاوزت الأربعين، تنطلق في دروب مدينتها الخضراء أمِّ التين والزيتون.

ينظر الليل إلى الحكايات وتنظر إليه، يتمايل أمامها صفٌّ من الأشجار في حركة حلوة كحركة العرائس غير أنها لا تشعر بالراحة.

تسألها المصابيحُ: لماذا خرجتِ؟!

هل ستذهبين إلى الصيدلية لتشتري مرهماً لأصابع فتحية المسلوخة؟

هوهووه. الصيدلية مغلقة الآن، وأظنك لا تحملين نقوداً.

هل ستذهبين إلى أحد المقاصف التي بدأتْ تنتشر في مدينتنا حيث الجو عامر بالأكل والرقص والبهجة، فتأخذين قبسةً من الفرفشة تحملينها لقلب فتحية؟

ماذا ستفعلين؟ قولي لي ماذا ستفعلين؟

فتيلٌ من النار مشتعلٌ في صدر الحكايات، تزيده سخريةُ المصابيح اشتعالاً، لكنها لا تردّ.

كانت منشغلةً تردّد بينها وبين نفسها: سأحكي.. سأحكي.

ثم ارتفع صوتها: نعم سأحكي، سأُحرجهم!

فجأةً سمعتْ وراءَها صوتاً رقيقاً يسأل: ماذا ستحكين؟

التفتتْ، رأت على الدرب هواءَ الليل يقترب منها، لاحظَ أنها مضطربة، فمرَّ بيده على صدرها، رفَّ حولها رفيفاً لطيفاً، ثم دعاها للجلوس على حافة الطريق لتخبره بمشكلتها.

أخبرته الحكاياتُ غاضبة: أنها خرجتْ من أصابع امرأة حالتها تُبكي الحجرَ الصوان، لكنَّ أحداً لا يفعل شيئاً من أجلها، فقررتْ هي أن تفعل..

ستذهبُ إلى إخوة فتحية، تدق أبوابَهم، تدخل عليهم كزوبعة، تسألهم: هل تعرفون كيف تعيش أختكم بعد المرحوم زوجها؟

للحكايات معرفةٌ جيدة بهؤلاء الإخوة، لذا فهي تتوقع كيف سيتصرف كلٌّ منهم.. أسعد أصغرهم الملقب بـ(الدبُّور) سيضيِّق عينَه، يزبد ويرغي، ويحاول طردَها معتبراً أنها تتدخل فيما لا يعنيها. أوسطهم صالح ذو الحنك الرخو سيتظاهر بالمرض وبعجزه عن أخذ الكلام وردّه. أما كبيرهم غازي الذي تبقى السيجارة مغروسةً في زاوية شفتيه فسيحكي بفم مائل وفوق وجهه كمشة من الدخان: تسألينا كيف تعيش فتحية؟ تعيش في بيتها معزَّزة ومكرَّمة.

ستضحك الحكايات، تتحول إلى ناي حزين، تقول:

- آه.. حقاً هي معززة ومكرَّمة! لا..لا. عزُّها فوق الوصف.. فوق الاحتمال تأخذه من ليفة الجلي وممسحة البلاط حيث صارت تعمل خادمة في بيوت الناس من طبقة الأكابر حديثي النعمة! و...

سيقاطعونها مندهشين أو متظاهرين بالدهشة:

- كلامك عجيب!

- الأعجب منه يا سادة ما جرى اليوم، وهو ما جعلني آتي إليكم كالمجنونة.. لقد تخلت السيدة التي تعمل في بيتها عن خدماتها، وبدلاً منها- حسب موضة الخادمات- ستأتي بفيليبينية!

ماذا سيحدث بعد ذلك؟ قد يشتمها الإخوة، وقد يدفعونها نحو الباب متهمين إياها بالكذب، وقد يزفر أحدهم قائلاً:

- تريدين أن نساعدها؟ من قال لكِ: إننا نتأخر لو كنا قادرين على ذلك؟! هي أختنا ونور عيوننا، لكنَّ أحوالنا على قدِّها. الذنب ذنب زوجها كان كسولاً ولم يحسب حساب المستقبل!

هنا ستتحول الحكايات إلى نور أزرق يدور دورةً خاطفة في فضاء الغرفة كالشهاب، ثم تهتف بهم:

- أيها الطيبون لا تُخرجوا شيئاً من جيوبكم. يكفي أن تعيدوا لأختكم ما أخذتموه منها. لا تظنوا بأنني لا أعرف، أنا أعرف كلَّ شيء.

بعد هذا التهديد ستجعل الحكايات من نفسها جرساً، يحاصر برناته رؤوسَ الإخوة، ستُذكِّرهم بما فعلوه بأختهم..

عند موت أبيهم ترك ثروةً طيِّبة، مدَّ قانونُ الإرث يده ليقسم الثروةَ إلى سَواقٍ، في الساقية المتجهة إلى فتحية كان هناك مئتان من شجر الزيتون. مئتان بالتمام والكمال. لكنَّ الإخوة رفعوا رؤوسهم، فوجدوا فوق الحائط لوحةً عتيقةً باهتة، مكتوباً عليها: (البنات لا يرثن من الأرض). أعجبتهم اللوحة جداً، نفضوا عنها الغبار، باسوها، نصبوها في وسط الغرفة، ومن حولها طافوا كطواف العابد القديم حول الوثن! ثم عملوا بما جاء فيها!

قبل أن يصحو الإخوة من دهشتهم أمام المعلومات الدقيقة التي يسمعونها، ستنقلهم الحكايات إلى مدار آخر.. ستوجه إليهم هذا السؤال: هل تذكرون هذه الأغنية:

(نام يا روحي نام/ لابعتلك طير الحمام/ يغنيلك ويهديلك لتنام)؟

ستضيف الحكايات: كان هناك بنتٌ صغيرةٌ طيِّبة تكبر إخوتَها الصبيان الثلاثة، تساعد أمها في أخذهم إلى النوم، فتغني لهم هذه الأغنية. سأترك لكم أن تحزروا اسمَ البنت وأسماءَ إخوتها، وكيف ردَّ هؤلاء لها الجميلَ عندما صاروا كباراً.

بعد هذا ستتركهم وتخرج، لن تنتظر إجاباتهم.. ستَدَعُهم أمام تيارات من الدهشة والحرقة والذكرى.

حين أنهت الحكايات حديثها ابتسم هواءُ الليل بمرارة، بلع غصةً كبيرة، قال:

- وهل تظنين أن الإخوة سيكسرون اللوحة، ويعيدون لأختهم حقها؟ آه.. أنصحك أن تعودي. هذه حالة صعبة.

صرخت الحكايات:

- لن أعود.. أبداً لن أعود.

نهضتْ، تابعت السير باندفاع، وصلتْ إلى بيت (الدبُّور) صغير الإخوة، تقدمتْ من الباب، لكنَّ خطاها انكمشتْ بغتة، ثم تراجعتْ قائلة لنفسها: إنه مجنون. الأفضل أن أذهب إلى أوسطهم.

أمام بيت الأوسط ذي الحنك الرخو ترددتْ أيضاً، فخيرٌ لها أن تذهب إلى كبيرهم غازي ليجمعهم في مكان واحد، ثم تقول لهم ما في نفسها.

بخطوة ثابتة اقتربتْ من بيت الكبير، صورة فتحية لا تفارقها، ما سيجري لها بعد أن أصبحتْ بلا عمل يزيدها إصراراً. اقتربتْ أكثر، وضعتْ إصبعَها على جرس الباب، لكنها فجأة انسحبتْ إلى الخلف: ماذا لو عرفتْ فتحية بما قامت به؟ صحيح أنها منهكة حتى العظم، لكنها لا تقبل أن يتصرف أحد بالنيابة عنها. هي صامتة، صمتها حزين مخيف، قد ينفجر ذات يوم، فيزلزل ويُدمِّر.

خَفَضتِ الحكاياتُ رأسها، تنهدتْ قبل أن تعود، سلكتْ في عودتها الطريقَ الذي جاءت منه. أثناء العودة التقتْ بحكايات كثيرة مثلها، بعضُها خرج من الأصابع، بعضها خرج من القلوب الذبيحة، بعضها خرج من عيون عزَّ عليها النوم، تبادلت الحكايات النظر، وتابعتْ طريقَها دون أن يشعر بها أحد.

***

سأطلقُ النار على القادم الجديد

لم أكنْ قاتلاً في يوم من الأيام

والسلاحُ لم يكن صديقاً لِيَدي.

لكنني اليوم غاضبٌ.. غاضب، وسأطلقُ النار على هذا الكائنِ الواقفِ في شرفة الأفق.

اسمُه ليس سراً، إنه العام 2017.

يا لطيف..! ستقولون عني مجرم من نوع فريد، يستحق لقب: (قاتل أعوام)، أو (عبقري جرائم)، لأنه يجعل السنين لا الأشخاصَ هدفاً له.

قولوا عني ما تشاؤون. لا يهم.

خسرتُ الكثير، ومستعدٌ لأخسرَ سمعتي.

أنا ملكُ الخسائر، وسلطانُ المفلسين.

حتى عورتي لن أغطيها بورقة توت، بل سأرفع عنها تلك الورقة.

لماذا أكره العام 2017؟

باختصار.. أنا من بلد كان له اسم.

والآن صار بلا اسم، بلا هوية، بلا شيء!

سوريا كان اسمُه.

اذهبوا إلى التاريخ ليحدثكم عنه.

اذهبوا إلى الشمس لتخبركم عن ضيائه.

اذهبوا إلى الرب سيقول لكم: إنَّ أصابعَهُ تفننتْ في تكوينه، وعلى ترابه سقطتْ حباتُ عرقٍ لا مثيلَ لها.

فجأةً حضرَ الجنون إلى بلدي على ظهر مركبة، قذفَ بيوضَهُ في كلِّ مكان!

من البيوض خرجتْ بنادقُ وسكاكينُ، ثم صواريخ وقذائف!

وقفتُ في حضرة العام 2012، وَعَدَني بالحل، فغمرتُه بالورود والقبلات، لكنَّ سلةَ المهملات كانت المحطةَ الأخيرة لوعوده!

تكرر الأمرُ نفسُهُ مع الأعوام التالية: 2013، 2014، 2015، 2016..!

اكتشفتُ أنَّ الأعوام مثلُ الأمم المتحدة، مثلُ الأطرافِ المتحاربة لا قلبَ لها! إنها تبيعني سُمَّ الوعود!

تتركني أنا وبلدي على رصيفِ الانتظار عاريينِ أمام عُواءِ الخوف، والموت، والجوع!

وحيدينِ تحت لهبٍ مجنون يهطلُ علينا من السماء.. حتى صرتُ أخاف أن أرفعَ بصري إلى فوق!

اكتشفتُ أيضاً أنَّ نذالةَ الأعوام كنذالة البشر تتطور! لهذا.. فكرتُ في أن أخلعَ براءتي، وأُشهرَ نحوَها السلاح.

سلاحي الآنَ جاهز، وهو مثلي في ذروة الغضب. إنه بندقية أسدِّدُها نحو القادم الجديد 2017.

ولكنْ.. ما بالُ يدِي ترتعشُ في هذه اللحظة، ترتعش؟! آه.. إنني أسمع بين ضلوعي صوتاً يهتف: توقَّفْ. إياك أن... ألا تعرفُ أنَّ إطلاقَ النار في رأس السنة سيرعبُ الأطفالَ الذين يحتفلون مع ذويهم بهذه المناسبة؟! سيرعبُهم، ويُنغِّصُ عليهم فرحتَهم. احتفالاتُ هؤلاء تجري طبعاً في بلادٍ سعيدةٍ غيرِ بلدي.

ها هيَ دموعي تهطل. لم أعدْ أرى الهدف! أرى فقط مكانَ وقوفي على بابِ خيمة، في بلدِ لجوء!

***

ثوب النوم الزهري

العم (عبد الله) متمددٌ على السرير، الموتُ قريبٌ منه، يَبْرمُ حوله، يتحسسُ رقبتَهُ قبـل أن يضغطَ عليها الضغطةَ الأخيرة، لكنَّه غير خائف! كأنَّ الموتَ شيءٌ تافه.. كأنه مشوارٌ إلى السوق سيعود منه بعد قليل!

من حوله جلستْ بناتُه على الكراسي وأصهاره الثلاثة، وأحفاده. زوجته ظلّـت واقفةً تَعْصُرُ يديها ولا تعرف ماذا تعمل! كان الجميع صامتين، قـلوبهم في عيونهم، لكنه كان يطمئنهم بابتسامته الهادئة، وعينيه الزرقاوين الصغيرتين المشعَّتين بالمرح والأمان رغم اصفرار وجهه، وتقلُّصِ خديه!

نظر نحو زوجته (أم دلال) كأنه يريد منها شيئاً، فانحنت فوقه قائلة:

- نَعَمْ.. أبو دلال؟

- بصراحة لي طلب صغير، ولكنْ أخاف أن ترفضي.

- أرفض؟! اطلبْ روحي، سأرميها حالاً بين يديك.

- ثوب النوم الزهري الذي أحبه. البسيه الآن يا أم دلال مع قلم حمرة على شفتيك الحلوتين.

تراجعت المرأة إلى الوراء، كأن الدهشة شدَّتها من شعرها! زوجها هذا غريب الطباع تجاوز السبعين ولم يتغير! إنه يأخذ الأمور مهما صعبتْ ومهما تعقدتْ مأخذ البساطة كأنها خيارة مقشَّرة يقطعها بأسنانه: مثلاً لم يرزقه الله بخلفة الصبيان، فلم يعترض، ولم يغضب، كأنَّ البنات والصبيان عنده شيء واحد! نام مرة في مطار دمشق وهو ينتظر موعد الطائرة التي ستحمله إلى السعودية، وعند استيقاظه قالوا له متعجبين:

- هوهووه..! لقد طارت منذ ساعة. أين كنت؟!

فضحك، وقال:

- بسيطة. أعود بعد يومين، وأركب في الطائرة الثانية.

زوجها عبد الله- سبحان الخالق- أبو العجائب والغرائب، لكنَّ طلبه هذا أعجب من كلِّ عجائبه القديمة!

نظرتْ أم دلال إلى مَنْ حولها، فازدادتْ دهشتها: كان الجميع يأمرونها بعيونهم أن تُلبِّي طلبَ الرجل المريض! واضحٌ أنهم سمعوا كلماته، فهو يقول كلَّ شيء بصوت مسموع، ولا يرتبك من شيء!

لا تعرف أم دلال كيف لبست الثوب الزهري؟ هل ساعدتها بناتها في ذلك؟ لا تعرف أيضاً كيف مرَّت بقلم الحمرة على شفتيها؟ كلُّ ما تعرفه أنها عادت إلى غرفة زوجها مرتبكةً جداً، كأنها نسيت المشي! فالثوب قصير الأكمام، مكشوف قليلاً عند الصدر: (لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا به!)

جاءها صوته واضحاً هادئاً كالعادة:

- أهلاً بالسمرا أم دلال. تعالي اجلسي بجانبي.

عندما جلستْ بجانبه على السرير ازدادت ابتسامته اتساعاً، توهجتْ عيناه أكثر، بدا كأنه يرجع إلى الشباب! رفع جسمه من حالة الاضطجاع، وحاول أن يطوقها بذراعه، لكنه انفلتَ فجأة إلى الوراء، وهَمَدَ كلُّ شيء فيه إلا طيفاً من ابتسامته الحلوة ظلَّ واضحاً على مساحة وجهه!

***

ابتسامتي التي التصقتْ بالمرآة

في يوم الابتسام العالمي تحدثتْ محطةٌ فضائية عن جمال الابتسامة، وعرضتْ وجوهاً اكتسبتْ بسببها لمسةَ سِحر.

محطةٌ أخرى- بعد أغنيةٍ موضوعُها: الابتسام- قدَّمتْ أبياتاً من قصيدة الشاعر إيليا أبي ماضي:

قـــال الســـــماءُ كئيبـــةٌ، وتَجَهَّـــما

قلتُ: ابتسمْ، يكفي التجهُّمُ في السما

ماذا أفعل؟ وأنا كهل سوري سحقت الحربُ في حياته أشياءَ كثيرة، وقبلَ كلِّ شيءٍ أطفأتْ أنوارَ ابتسامته! وقفتُ أمامَ المرآة، قلتُ لوجهي:

- أنتَ اليوم في مناسبة حلوة عظيمة أيها الوجه، فهاتِ أَرِنا واحدةً من ابتساماتك.

صحيحٌ أنَّ كراسي الأحباب والأصحاب من حولكَ فارغة، وأنَّ القرد له عائلة، وأنتَ لم يعد لك أحد، ولكنْ حاولْ أن...

صحيحٌ أنَّ الصواريخ تمرُّ، وتَتَمَشْور فوق بيتك، وأنَّ وجودَكَ مؤقت، وعمرَ صاحبكَ مؤقت، وكلَّ ما أنجزتَهُ مؤقت، ولكنْ حاولْ أن...

صحيحٌ أنَّ وجه وطنكَ المخلوقَ من وردٍ وياسمين صار خِرْقةً يمسحُ بها القساةُ أحذيتَهم، وشحمَ بنادقهم، ولكنْ حاولْ أن...

صحيحٌ أنَّ الأملَ نعيُهُ على بابك.

عقربٌ ينامُ على مخدتك.

كسرةُ الخبز كَسَتْ نفسَها بالعفن على مائدتك.

النحسُ جمعَ أبناءَهُ وأحفادَهُ، وحلَّ ضيفاً دائماً في ساحة عمرك، ولكنْ حاولْ أن... أستحلفكَ بالله أن تحاول.

ظهرتْ على الوجه أمامي في المرآة حالةٌ غريبة عندما حاولَ أن يبتسم.. الخدان تراجعا إلى الخلف بشكلٍ غيرِ متناسق! الأنف انمطَّ إلى الأمام كأنه خازوق! العينان جامدتان، كأنهما طالعتان من مقبرة!

ارتعبتُ من ابتسامة وجهي! هجمتُ على المرآة لأمسحَها، لكنها عَلِقَتْ هناك! جاء رجلٌ يسكنُ معي في الغرفة، رآها، فخاف منها! الجيران خافوا! الملائكة، حيطانُ البيت! قذفتُ المرآةَ إلى الأرض، فتحطمتْ، لكنَّ الابتسامةَ المخيفة لم تختفِ، إنما ظهرتْ فوق كلِّ قطعةٍ من الشظايا الصغيرة!

***

على قدم واحدة

في الحديقة العامة رأى جنِّيةَ البحر!

جسدها مبلولٌ بالماء.

من أين جاءت؟! البحر بعيد، والنهر بعيد!!

بدتْ له مجنونةً مرحة، تقف أمام كاميرا محمولة على (سيبا) لتتصوَّر.

وضعيةُ التصوير التي اختارتْها عجيبةٌ غريبة تكشف جنونَها وخفةَ دمها.

كانت تستند على قدم واحدة، تنحني، تفتح ذراعيها كجناحي طائر، وتُرخي غُرَّةَ شعرها الرطبة بحيث تتأرجح، وتقطر ماءً على خدِّ الهواء!

- الله يا ماء.. يا جنية البحر!

لم تنجح اللقطة، غضبت الجنية، زفرتْ، ذهبتْ إلى الكاميرا، أعادتْ تعييرها، كررتْ وضعيةَ التصوير محاولةً ضبطَها، لكنها لم تشعر بالرضا حتى بعد المحاولة الثانية!

- آه يا كاميرا كم أنتِ قليلةُ ذوق! لا..لا.. أنتِ رائعة، لأنكِ تتيحين لي فُرجةً أطول!

تلفتَ حوله، رأى الحديقة خاليةً في ساعة ما بعد الظهيرة، كم هو محظوظ بهذه الخلوة..! هو وهي يا سلام! فكَّرَ في أن يقدِّم لها العون..

سيمسك بيده خصرها أو رجلها الثانية المعلقة في الهواء ليساعدها على التوازن، ثم ينسحب بسرعة، لا.. سيمسك رأسها، بل خصلةَ شعرها ليؤرجحها بطريقة أفضل، وعندما تنجح الصورة ستشكره بقبلة، أو ترقص له رقصة خاصة بجنيات البحر.

ولكنْ كيف يقدِّم لها نفسه؟ سيقول: إنه رسام، أو هاوي تصوير ضوئي، والأفضل أن يقول: إنه مخرج، نعم مخرج، فحين تسمع الكلمة ستضع أمر اللقطة كلِّها بين يديه.

حينئذ يأتي دوره ليتصرف بمكر، سيتظاهر بالجدية، يعطيها إشارات كثيرة بأصابعه: فوق.. تحت.. يمين.. يسار إلى أن يجفَّ جسمها، فيهتف: واخ، يجب أن نبلَّه من أجل اللقطة.. هل عندك مانع؟ ومع ظهور الموافقة في عينيها سيتناول خرطوم الحديقة، ويوجهه إليها، فتصيح: أح، وتهرب وراء الأشجار والكراسي، وهو يطاردها حتى تتعب، فتنسى أمر الصورة، وتجلس بجانبه!

أعجبته الخطة، نهضَ لتنفيذها، مشى على أنغام قلبه، لكنَّ بصره اصطدمَ بالفراغ، فالجنية لم تعد في الموضع الذي كانت فيه! مطَّ عنقه يميناً ويساراً، لم يعثر لها على أثر! أطلق سحابةً من علامات التعجب، رجع إلى كرسيه في الحديقة، التقط القصيدة الغزلية التي كان يقرؤها، وهي من أشعار نزار قباني، فوجدها مبتلةً بالماء!!

***

جهة ليست في كُتب الجغرافيا

لديه مشكلةٌ صعبة، تزوغُ منها عيناه.

الشرق يتحرك فجأةً من أمامه ليصبحَ غرباً!

الشمالُ أيضاً يصبح جنوباً!

باختصار.. تُغيِّرُ الجهاتُ أماكنَها أمام ناظريه عدةَ مراتٍ في اليوم! وكأنَّ الكونَ كلَّهُ صار قلَّابة، أو حديقةَ جنون صغيرة تلعب مع رأسه!

ماذا يفعل وهو رجلٌ لاجئ، شرَّدتْهُ الحرب من بلده سوريا؟!

اليوم صباحاً وجدَ حالتَهُ أسوأَ من أيِّ يومٍ آخر..!

قذفَ رأسَهُ بين كفَّيه.

رباه.. هل هي علةٌ نزلتْ به؟

مدَّ يدَهُ إلى فنجان القهوة، فوجده بارداً، طعمُهُ ممتزجٌ بحموضةٍ غريبة!

شجرةٌ قريبةٌ منه كانت أوراقها خضراء قبل لحظات، وها هيَ الآن مكسوةٌ بالصفرة!

قذفَ رأسَهُ بين يديه مرة أخرى، وبدأتْ سمفونيةُ أوجاعه.

على مخيلته انهمرتْ صورٌ، وصور..

دارٌ ضائعةٌ مقفلة همستْ له من بعيد، طاولةٌ كان يُحَضِّرُ عليها دروسَ تلاميذه سيطرَ عليها الغبار، حوضُ نباتٍ ظامئ هتف به:

- اسقني قبل أن أموت.

مدَّ يداً مرتجفة، بين أصابعها إبريق، بدتِ اليدُ قصيرةً، دَفَعَها نحو الأمام بقوة، كاد يقلعها من مكانها، لكنَّ الإبريقَ سقط منها، وبقيَ النبات ظامئاً!

أطلق صرخةً بطول غربته.. بطول أوجاعه.

ما أصعبَ أن يصبحَ رجلٌ كائناً كرتونياً لا يستطيع سقايةَ مزروعاته! لا يستطيع مسحَ الغبار عن طاولته!

صرخةٌ ثانيةٌ، ثالثةٌ، عاشرة.

هدأ بعد قليل، فوضعَ أمامَهُ فنجاناً جديداً من القهوة، بدأ باحتسائه.

أتاه مع القهوة صوتٌ عذبٌ ساحر هو صوتُ فيروز:

(أنا مين اللي صحَّاني من عز النَّوَمْ؟

وصَوْبْ عيونكْ ودَّاني من أولْ يَومْ).

سَحَرَهُ المعنى، وتخيَّلَ صبيَّةً تمشي لا شرقاً أو غرباً، إنما متجهةً إلى عيون حبيبها!

- آه.. آه.. آه.

مع آهاته نَبَتَ في الهواء وجهُ ملاكٍ رحيم، قال له:

- تريد أن تفهمَ مشكلتَك؟ إنها هاهنا في الكلام الذي سَحَرك.

هتفَ بحرقة:

- كيف؟ كيف؟ أخبرني، أرجوك.

ردَّ الملاك:

- في أغنية فيروز عيونُ الحبيبِ جهة، لا تتحدث عنها كُتب الجغرافيا، والوطنُ الذي ضاع منك جهةٌ أهم.. جهةٌ كبرى لا تذكرها الكُتب الجغرافيَّة أيضاً، بل هو حِضْنٌ يحمل الجهاتِ كلَّها، لهذا فأنتَ من دونه تشعر بالدوخة، ومع الدوخة يصبح كلُّ شيءٍ قبيحاً مُرَّاً.

غادرَهُ الملاك، فوجد نفسه فوق قمةٍ عالية يبكي، ويدعو الله بهذا الدعاء:

- اللهم ناديتُكَ كثيراً لتعيدَني إلى بلدي، نادتْكَ حناجرُ النساء، والأطفال، ناداكَ الحجر والشجر، نادتْكَ أبوابُ المنازل. اللهم عندي أمنيةٌ أخيرة لا تردَّها خائبة، حين أموت يا مولاي خذ قطعةً مني إلى بيتي، وادفنها هناك إلى جانب النبات الذي عجزتُ عن سقايته.

***

في مَهبّ امرأة

اشتعالات أولى:

انتبهَ متأخراً لعينيها، في عمقهما صفاء، نور، براءة من عالم الطفولة تُخالفُ ما تقوم به من (شقاوات) أنثوية واستثارات.

الخيط الأول للعلاقة بينه وبين سُهاد بدأ من خلال الوظيفة، وصل منقولاً للعمل في غرفتها من غرفة أخرى في الدائرة، ولم يكن اهتمَّ بها سابقاً. أقبلتْ تُسلِّم عليه فيما يشبه هجوماً ناعماً، فوصل إلى أنفه عطرُها النافذ.

لاحظَ لاحقاً أنها تقترب منه أكثرَ من اللازم عند الحديث! أهي عادتُها مع الجميع؟ أم هذا من تكتيكاتها الأنثوية.. تكتيكاتِ امرأة تجاوزت الثلاثين، ولَّما تتزوج؟

لكنَّ سُهاد حين تُسأل عن عمرها تحذف منه نصفَ (دزينة) من السنوات! أما هو ففوق العشرين بقليل، يتابع مع العمل دراسته الجامعية. لاحظَ أيضاً قوامَها المائل إلى الامتلاء، والصورَ الثلاث فوق كرسيها وراء الطاولة لـ فيروز، عبد الحليم، تتوسطهما (الجوكوندا) ذاتُ البسمة الغامضة.

صارت تدخل إلى الغرفة التي يعملان فيها منفردين بقدمين منطنطين، وتخرج بالطريقة نفسها! هل تنوي أن ترقص؟ أن تطير؟!

أخذَ دلعها يخطفه بعيداً بين حين وآخر، يرميه في مدارات العسل والبهارات اللاذعة، لكنه قال لنفسه: لا. فمنذ أن دخل الجامعة/ قسم اللغة الإنكليزية قبل ثلاث سنوات يترك بينه وبين النساء مسافةَ أمان خوفاً على دراسته. تفوقه فيها يعني له الكثير، فهو يردد على مسامع الجميع: (Learning First)[1]، وزملاؤه يصفونه ضاحكين بأنه (حمار علم) لا يعرف شيئاً عن الدنيا!

تابعتْ بثَّ إشاراتها الأنثوية على موجات عديدة، وتابع تمسكه بكلمة: لا.

شفتاها المطليتان بأحمر لطيف خلال شهرين من عملهما معاً ترسلان برقيات وبرقيات.

- لا.

شعرها النازل فوق سجل المحاسبة وهي تكتب تآمر عليه هو الآخر، فأخذ يرسل برقيات من الحرير، تنورتُها، ضحكتُها، طريقةُ إمساكها بالقلم أرسلتْ برقياتٍ أخرى!

لا يدري كيف وضع يده فوق يدها؟!

تحت شجرة في (المشتل: حديقة البلد) جلسا قريبين من تمثال (أبي فراس) الشاعر، الفارس، خطر له في عزّ النشوة أن يوشوش التمثالَ طالباً منه بيتاً من الغزل ليقوله في جمالها. خطر له وهو يسمع صوتَ

(1) (Learning First): معناها: التعلُّم أولاً.

وديع الصافي يترقرق من نافذة سماوية: (عيونك يا حدّ السيف ومدهَّب بغنيِّه) أن يدبك شابكاً يده بيدها لو كانا في الحديقة وحدهما.

***

مع نفسه:

داخَ أمام سؤال لا بد منه:

ما الذي يريده من سهاد؟ وماذا تريد هي منه؟

تبدو- مع قيامها بإغرائه- غيرَ مستعدة للنزوات، وهو غير مستعد للزواج.

لا ينسى أنها أكبر عمراً، وراتبه الصغير يوزعه سواقي بين أجرة البيت، والطعام، ومصروفات الدراسة، ولا يمكن أن يبني به بيتاً للزوجية.

ماذا يريد؟! تجربةً عاطفية؟ ملءَ فراغ؟ لا يدري. كلُّ ما يدريه أنه صار مملوءاً بحضورها وغيابها حتى حافته! إنها تهبُّ عليه كالريح طرية حيناً، قاسية حيناً وهو يجد قلبه راضياً مرة، غاضباً مرة من شَبَكتها التي ظفرتْ به، حتى إنه يتمتم أحياناً: (يا فرخةَ إبليس)!

ماذا تريد هي؟ إنها لم تطلب منه شيئاً محدداً، تكتفي بأن تحاوره بالصمت أكثرَ من الكلام. ترتبك أحياناً في حضوره كابنة الخامسة عشرة! أمن المعقول أنها غريرة إلى الآن؟! رغم الثلاثين التي تجاوزتها، ورغم ما جاءت به من حركات الإثارة؟ أم تمثِّل ذلك تمثيلاً؟

***

النافذة:

وصل إلى البيت متعَباً بعد يوم حافل بالعمل والمحاضرات المسائية في الجامعة، فأسلم نفسَـه للمنظر السماويّ الذي يظهر من نافذة بيته، بينه وبين المنظر صداقةٌ قوية. الانفتاح الأزرق العُلويّ يجعله يتصاعد في سلَّم الألوان المتدرِّجة عند الغروب، معراجٌ يوميّ جميل ينسيه أوجاعَه، ورثاثةَ البيت نفسه القابعِ في طرف من حي (الصاخور)، ينسيه حتى الأرضَ شبه الجرداء المجاورةَ للنافذة، تلك التي يمر بها (طَرْش) العنز، فتقف عنزات من (الطَّرش) أمام عوارض نافذته تنظر بفضول، ولولا العوارض لوجدها عنده في الغرفة تأكل كتبه وجواربه!

الشمس أمامه حمراء، وفي الجهة اليسرى غيمة ضخمة ناصعة كأنها جُرف من ثلج طريّ ينحدر كدَرَج نهايتُه تلتحم بالأفق. وجد نفسَه فوق الغيمة يفتح ذراعيه متنهداً، يتزحلق بمرح، ثم يتوقف، ويصرخ: سهاد! تنبثق أمامه بجسمها المقارب للامتلاء، يقرصها قرصةَ اشتهاء، فتنفر كغزالة، يتبعها، يدفعها، يتدحرجان على صدر الغيمة، ينثران رذاذَ ضحكٍ عذب.

***

اثنتان في واحدة:

قلتُ في البداية: إنه لم ينتبه لعمق عينيها إلا متأخراً، والسبب: حادثة، بل حادثتان مضحكتان محزنتان: خلع مرة حذاءه الطبيّ الذي

لا يستطيع أن ينتعل سواه لنتوء عظميّ في قدميه الاثنتين، النتوء مجاور لمفصل الإصبع الكبيرة، يظن الناظر إليه أن الإصبع حامل بإصبع صغيرة، وستلد عما قريب، خلع ذلك الحذاء، لبس (بوط) الرياضة ليلعب مع رفاقه بكرة السلة، ولما عاد لم يجد الحذاء!

الحذاء الجديد الذي اشتراه بـ(مئة ليرة سورية) تشكِّل في عامئذٍ من منتصف السبيعنيات أكثرَ من نصف راتبه، هذا الحذاء الثاني وصلتْ إليه بعد أيام يد نشَّال آخر عندما كان في زيارة لأحد أصحابه، وترك الحذاءَ أمام باب المنزل!!

المهم صار يتفقد حذاءَه على الطالع والنازل، حتى وهو في قدميه! لذا فناظره لم يعد يستقر على أي شيء لفترة طويلة، ولو كان ذلك الشيء عينَيْ سهاد!

لأول مرة انتبه إلى قرارة عينيها في لقائهما الرابع.. جلستْ بجانبه على كرسي (المشتل) كشجرة جميلة، لكنها- ما زالت في أعماق روحه- مجهولةَ الاسم والثمر، اختارا لجلوسهما ركناً منعزلاً، وكان تيسير ينقِّل عينيه بينها وبين قامات الأشجار، وبين حذائه الجديد الثالث، فإذا بها تضع إصبعها تحت ذقنه مرغِمةً وجهه وعينيه على النظر إليها، وعبر خط العيون المتلاقية، وجهتْ إلى عينيه سؤالاً محدداً بسيطاً:(هل أنا موجودة في قلبك؟)

اكتشفَ عندئذ في بؤبؤيها المنتظرين للجواب بقلق شعاعَ صفاء، ونور، وبراءة، يخالف ما توحي به شقاواتها الأنثوية، وكأنها اثنتان في واحدة!

اخترقه الشعاع، فأجابتْ عيناه: (نعم).

أعادتْ سهاد سؤالها بطريقة أخرى: حقاً؟

- حقاً ونصف يا سهاد.

الغريب أنها بعد نشوة عميقة صغيرة، رفت بأجفانها، كأنها تذكرتْ شيئاً منسياً بعيداً، فانشدَّتْ إلى ذلك البعيد، ونسيتْ تيسير، أما فمها فارتسمتْ فوقه بسمة جوكندية!!

***

لخبطة:

في اليوم الثاني لاعترافه ارتفعتْ عنده درجة الحيرة، فقد توقَّع أن يكون لقاؤهما بهيّاً مميَّزاً في غرفتهما التي يقلُّ دخول الموظفين والمراجعين إليها. سيضع يده فوق يدها، يطمر ارتعاشاتها بارتعاشاته، وعبر مسارب الأعصاب سيبثُّ هو برقياته هذه المرة:

* تصوَّرتُ البارحة أنكِ ستكونين أكثرَ بهجةً وحيوية. ما الحكاية يا سُـهاد؟

* أنا ابن مدينة صغيرة كالريف أيتها الحلوة، ولا أطيق أن تلعب بي بناتُ المدن على طريقتهن.

* لا تشغلي بالك بما نريده من بعضنا. يكفي أننا نمشي في طريق الحب، ولنترك له أن يختار لنا ما يشاء.

توقَّع هذا وغيرَه، لكنه وجدها قد وصلتْ قبله إلى العمل، ردتْ على (صباح الخير) التي انسابتْ من شفتيه برقة بالغة رداً عادياً،

وانهمكتْ في سجلات المحاسبة! جدِّيتها المفاجِئة بدتْ له في غير موضعها، طيَّرتْ ضبانات عقله!

***

تشخيص:

زميله الإدلبي في قسم اللغة الإنكليزية الذي يستخدم في النداء (يو) بدلاً من (يا) انفلتَ ضاحكاً عندما سمع حكايته، قال بهزء:

- الظاهر أنك يو تيسير غشيم في النسوان، وهذه العانس رأتك على قدّ أسنانها. افتح عينيك، الكلية عندنا مليئة ببنات أحلى من القشطة.

***

تشخيص آخر:

في قسم (المنوّعات) في الجريدة قرأ بالأمس أنَّ المرأة عندما تحبّ تخرج من ذاتها القديمة إلى ذات جديدة، لكنَّ الخروج - رغم عذوبته- يرافقه اضطراب وقلق، كمن يهجر حيَّه إلى حي جديد غريب.

***

ملاحظة معترضة:

في سُهاد شيء غامض يتعلق بلباسها، فهو محتشم في الجزء الأعلى منه: قميص بقبَّة عالية، كنزة بقبَّة، بلوزة غير مفتوحة عند الصدر، وغالباً ما تضع شالاً على رقبتها. أما الجزء الأسفل منه، فيراها تساير فيه الموضة، فتلبس تنانير قصيرة حمراء، نيلية، بيضاء تكشف عن مطلع

عمودين رخاميين لم يصل إليهما الترهل. داعبها مرة حول هذا التناقض، فاحمرَّ وجهها أكثرَ من اللزوم، ولفَّت الشالَ جيداً على رقبتها قبل أن تُغيِّر الموضوع!

***

مع نفسه مرة أخرى:

أيكون زميله الإدلبي على حق؟ هل المعادلة بينهما: غشيم وماكرة؟ أم أن الصواب ما قرأه في الجريدة؟ أم هناك معادلة أخرى؟ أيّاً كان الأمر فحيرته منها تزداد، تنقلب إلى استياء.. إلى غضب!

يسألها: لماذا صارت جافةً معه؟ فترمي في أذنيه (دستةَ) أعذار، كلُّها كاذبة!

اكتشفَ أنها- في هذه الناحية- تكذب بطلاقة، وكأنَّ كيساً من هذه البضاعة جاهز تحت لسانها! لكنَّ كذبها من حيث الجودة رديء! يكتشفه السامع بيسر!

احتار تيسير: لماذا تكذب وهي غير ماهرة؟! واحتار أكثر لأنَّ عينيها - في حالة الكذب - لا تكونان منسجمتين مع لسانها، كأنها تكذب وهي حزينة، أو غير مقتنعة، أو هي مرغمة على الكذب!!

***

بوظة فوق القميص:

لكزتْ خصرَه بالحقيبة التي تعلِّقُها على كتفها لكزةَ مداعبة أو اعتذار أو تحرُّش، قالت:

- اليوم نلتقي في المشتل بعد العصر.

كانت خارجة بعد انتهاء الدوام في ذلك اليوم، وكان في تلك الآونة عازماً على إعلان القطيعة، لكنه ينتظر الفرصة المناسبة، غضبَ لانفرادها بقرار اللقاء، لكنه ذهب!

لقاؤهما كان أجملَ من لقاءاتهما السابقة بكثير.. أجملَ مما رسمَهُ قلمُ أحلامه: جلسا في زاوية من المشتل، والخريف في أوله يُذهِّب أطرافَ الأغصان، بدتْ حنونةً كأنها تعوِّضه عن حرمان طويل، انطلقتْ، فاشترت (البوظة) في غير أوانها، أطعمته منها بيدها، وبينما هو منسجم يأكل، ويضحك نزلتْ نقطة من (البوظة) فوق قميصه! فاعتذرتْ، أرادتْ أن تمسحها له، فقال: لا. اتركيها، هكذا صار القميص أحلى! روتْ بعضَ النكات، سمحتْ لكفها أن تستريح في كفه، ورغم جرأتها بدا شخصها محاطاً بالعفوية والبراءة، شمَّ عبيرَ أنوثتها عن قرب، فخطفَهُ امتدادٌ شاسع من القرنفل والتمرحنا وزهر العسل! وشعرَ أنَّ الأنوثة لا تشيخ، وفكَّر.. فكَّر جدياً في أنه سيقول لها عما قريب كلاماً حاسماً.

***

انفجار:

في الحديقة المحيطة بمكان عملهما عصفور هارب من ضجيج المدينة يزقزق منتشياً بأنه وجد مكاناً للزقزقة. استعار تيسير من العصفور كلَّ ما في صوته من عذوبة، وقال لسهاد الكلامَ الحاسم الذي فكَّر فيه.. كلام يريح كلَّ أنثى تشك بحبيبها، فصُعِقَ إذ رآها-

كيوم اعترف لها بأنها موجودةٌ في قلبه- تنتشي نشوةً عميقة قصيرة، ثم ترف بأجفانها، كأنها تذكرتْ شيئاً منسياً بعيداً، انشدَّتْ إليه، ونسيتْ تيسير نفسه، وفمها.. على فمها انطبعتْ بسمة جوكوندية!!

أمسكها من ذراعها، صرخ بصوت دَخَله البارود:

- أقول لكِ نتزوج، فأراكِ مثلَ الخشبة! أليس هذا ما تريدينه؟! ربما لم تسمعي! سأعيدها.

أنساه الغضب أنه في مكان العمل، فأخذ يزعق: نتزوج، نتزوج!

لا شكَّ أن الزملاء والزميلات في الغرف الأخرى سمعوا، فقد دخل أحدهم مستفسراً بعينيه.

هبط رأسها إلى الأرض، كأنما انكسرتْ رقبتها، لَمَّتْ نفسها، ثم غادرت الدائرة دون إذن، وما زال النهار في أوله!

***

عودة إلى نافذة البيت:

أف، أف، أف!

حتى نافذة البيت بالمنظر السماوي الذي تقدِّمه لعينيه لم تعد قادرةً على إراحته!

في ذلك اليوم سمَّى تلك المرأة بينه وبين نفسه بدلاً من (سهاد) بـ(العانس). لا.. (العانس) لا يكفي أضاف إليه: (المعقَّدة). لا. سيستخدم الكلمة الأخيرة فقط على سبيل الاختصار. ظلَّ لا يدري كم من الوقت يردد كلمة واحدة: المعقدة، المعقدة، المعقدة! وزاده

اشتعالاً أنه يتخلف في الدراسة منذ فترة، وكأنَّ شعاره: (Learning First) صار إلى: (Sohad First)!!

***

نهاية ناقصة:

لَفْحُ فرنٍ مستعر، زوبعة محمَّلة بما هبَّ ودب، جنونُ ليلة شتائية، شيء شبيه بهذا كلِّه أو خلطة عجيبة من هذا كلِّه مرتْ على علاقتهما بعدئذ.. عادت إلى الغرفة بعدما مرت خمسةُ أيام، علمَ أنها حصلتْ بالهاتف على إجازة، كان وجهها، صورتها، نقلةُ قدميها على البلاط لامرأة أخرى! كأنها وضعتْ حيويتها السابقة في خزانة المنزل، وعادت بهذه السحنة الميتة! حزنَ لأجلها، لكنه للحظات قليلة حمد الله على خراب العلاقة بينهما، فلو وافقتْ على الزواج، ما تراه يفعل بهذه العجوز في بيته؟! لكنه خجلَ من مشاعره، طردها من قلبه، سألها عن حالها، فأخبرته بطلاقة لا تناسب انكماشَها العام أنَّ أباها في الهند منذ مدة، وقد أجروا له زرعَ كلية من قرابة أسبوعين، وهي لم تخبره أصلاً بذلك لأنها مسألة شخصية. المهم نجحت العملية، لكن أمراً سيئاً حصل، فالأب ضاق ذرعاً بجلوسه في السرير، وببعده عن حلب، فشدَّ خرطومَ القثطرة الخارج من الحالب، فوقع نزف خطير! الطبيب الهندي قام بما يمكن القيام به، ثم أرسله إلى حلب، وهو الآن آخذ في التحسن.

تَبِعها تيسير بعد نهاية الدوام، عرف موقعَ العمارة التي تسكنها دون أن تشعر به، حمل الوردَ قبيل المغرب، قرر أن يزور أباها رغم بعض

الشك الذي اعتراه في الخبر كلِّه، وعاد في حالة شبه هستيرية! السمان الذي سأله عن الطابق الذي تقع فيه شقتهم، وعرف سببَ قدومه أخبره أن المقصود بالزيارة هووووه التحق بالرفيق الأعلى قبل سنتين!

ألهذه الدرجة أنت تسخرين بي يا سهاد؟! ألهذه الدرجة تنزلين مع الكذب إلى أسفل سافلين؟! حتى أبوك تنبشينه من القبر، وتجعلينه لعبة؟! تفووو.

عادت ترنُّ في رأسه عبارة زميله الإدلبي: (الظاهر أنك يو تيسير غشيم في النسوان)،(الظاهر أنك غشيم...).

عند قدومها صباحاً لم يرد على تحيتها! من نظرة فهمتْ أن أكبر أكاذيبها انكشف، فتقوقعتْ داخل الصمت كحيوان مُصبَّر، ولم تقدِّم أيَّ دفاع أو تبرير!

اقتحم الغرفة رئيس قسم المحاسبة المعروف بحدة مزاجه معلناً أن هناك خطأً في السجلات، فحصلتْ مفاجأة جديدة صاعقة: أشارت سهاد إلى نفسها بإصبعين اثنتين- وهي طريقتها في الإشارة- تعبيراً عن أنها المسؤولة، رغم ما يعنيه ذلك من حسم 3% ستلحق براتبها!

لم يقل هو أيَّ شيء مع أنه صاحب الخطأ! خطر له أنها تنتقم من نفسها المذنبة بهذا الأسلوب، فلتنتقم. إنها تستحق.

أسبوعان، ثلاثة انقضت لم يتبادلا فيها كلمة خارج العمل! لم ينظر حتى إليها! وكلما شعر بأنه سينظر اعتصم بعبارة الزميل التي أضاف إليها من عنده: (مو غشيم بس. أنت دب)!

في رأس الأسبوع الرابع وجدها تجمع أشياءها، انتقلتْ -كما خمَّن- إلى دائرة أخرى- وقبل الخروج ودون كلام مدت يدها له برسالة. إثر خروجها أمسك بالرسالة بين أربعة من أصابعه ليذبحها فوق سلة المهملات، لكنه لسبب مجهول لم يفعل، رمى الرسالة المغلقة في كيس أزرق إلى جانب القميص الذي نزلتْ عليه (البوظة)، وربطه عدة ربطات، كأنه يحبس فيه ذكرى لا يريد لها أن تظهر أبداً!

***

النهاية:

معذور تيسير لم يقرأ الرسالة، كان في حالة أسوأ حتى من الاحتراق، كأنه حاول بعدم القراءة أن يحرم سهاد من ممارسة آخر أكاذيبها عليه.

اليوم تفصله عن تلك المرأة مسافةُ ست سنوات، أكثر، أنهى دراسته، وتزوج من أخت زميله الإدلبي، واشتغل مدرساً، وها هو يضعُ (السيبا) يصعد إلى سقيفة البيت بحثاً عن معلومة في أحد كتبه الجامعية المرمية في (كرتونة)، لكنَّ يده ترتعش، وقد وقعتْ تحت نظره الذكرى القديمة ملفوفةً في كيس! عَرَفَهُ من لونه الأزرق، فكَّ خمسَ عُقد عن الكيس، فرأى الرسالة المقفلة، والقميصَ الذي نزلتْ عليه البوظة. فتحَ الرسالة التي مال ورقها إلى الاصفرار:

(تيسير.. أعرف أنني لم أعد أستحقُ من احترامك ذرةً واحدة، وقد تكون أصغر كلمة تستعملها في وصفي: الكذابة.

ولكنْ قل لي: ماذا تفعل امرأة مثلي جرَّبتْ أن تلهو مع شاب صغير لهواً فقط، فاكتشفتْ أنها أحبته بكل ذراتها وخلاياها! حتى باتت ترى أنه يستحق مَنْ هي أصغر منها عمراً وأحلى؟

ماذا تفعل، ولديها- فوق مسألة العمر- نقصٌ في جسمها، نقصٌ مزعج قد يصيب عاشقَها الطيِّبَ بالذهول أو القرف؟!

كنتُ في هذا الموقف الصعب، أتصور أنني- فيما لو تزوجنا- أقدم لك في ليلة الدخلة جسماً مشوهاً بتروا أحد أعضائه، فأصرخ بنفسي: يخرب بيتك يا سهاد، لا يمكن أن تفعلي ذلك بأغلى الناس، لا يمكن. وهكذا استنجدتُ بالكذب، أقدِّم لك كذباً مكشوفاً لتكرهني.

قد تسأل ما هو ذلك النقص؟ إنني.. إنني بثدي واحد! عمليةٌ جراحية ذهبتْ بالآخَر الذي أصابَهُ السرطان باكراً، ولذا كنتُ لا ألبس قميصاً مفتوحاً عند الصدر. سامحني).

نزلتْ نقطٌ كثيرة، نقطٌ ساخنة من وجه تيسير على الورقة. احتضنَ الرسالةَ والقميص، بينما جاءه من الأسفل صوتُ زوجته أخت زميله:

- هل سكنتَ على السقيفة يو تيسير؟ ألن تنزل؟

قال دائخاً:

- نازل، أنا نازل.

***

مصباح علاء الدين

وجدَ (شفيق) مصباحَ علاء الدين!

لم يجده في مغارة، لكنه رآه في سفارة كتبتْ له عقـدَ عملٍ إلى دولة بترولية غنية!

قالوا في قريته:

(شفيق الكَحْيان العَدْمان غداً سيفرُكُ المصباح، فيخرجُ له العفريتُ قائلاً: شبيك لبيك. سيتأتئ شفيق الكَحْيان طبعاً، ويُفأفئ، ويهرش رأسَهُ ويحك ذقنه، لكنه لن يعرف ماذا يطلب! وكيـف يعرف واحدٌ مثلُهُ مستلزماتِ النعيم وهو لم يتنعَّم قط! أسرتُه كلُّها أباً عن جد غارقةٌ في الفقر إلى أذنيها!

لا بد أنَّ شفيق سيعزم العفريت على كأس شاي ريثما يفكر، وبينما هما يشربان سينقر ركبةَ عفريته قائلاً:

- وجدتُها! أريد أن أعرف طعمَ الدنيا.

حينئذٍ سيقوم العفريت بلمح البصر بكلّ ما هو مطلوب: سيُحضِرُ لشفيق سيارةً يابانية من أحدث طراز! لا. سيختارها أمريكية، فشفيق صار غنياً، ولن يهتم بفاتورة البنزين الكبيرة لهذا النوع مـن السيارات. سيضع في يدَيْ زوجته (نوفا) وحول رقبتها عشراتِ الأساور والأطواقِ الذهبية.. حـتى يصعبَ عليها المشي من وزن الذهب

الثقيل! سيأخذه إلى أفخم المطاعم، ويُلبسه أغلى الثيـاب، ولا بد أن يصنع له سكسوكةً تحت ذقنه، ويقول له:

- اذهبْ ها أنت- بإذن الله- صرتَ أميراً!)

حملَ شفيق مصباحَهُ، ومضى إلى حيث أمرته السفارة، رفَّ بأجفانه في الأرض التي وصل إليها.. كان المـكان خالياً من الشجر، وغارقاً في الرمل! حتى المدرسةُ التي سيعمل فيها معلماً ارتفع الرمل إلى منتصف جدرانها من الخارج! صرخ شفيق:

- ما هذا؟! غيرُ معقول! أنا متعوِّد على الماء والشجر في قريتي، ولن أستطيعَ العيشَ هنا. حرام.. حرام!

وضعَ مصباحَهُ على الأرض، فَـرَكَهُ، ونادى:

- اخرجْ أيها العفريت. بدِّلْ لي هذا المكان، أو أرجعني إلى قريتي، أو على الأقل أعطني نسمةَ هواءٍ باردة في هذا الحر القاتل.. نسمة هوا.. هوا.

لكنَّ المصباح ظلَّ قطعةَ نحاسٍ جامدة!

***

قيامة الجَمال

اختلجَ قلبه حين وقعت عيناه على وجهٍ من فلّ وياسمين.

زلزالٌ صغير هزَّ كيانَهُ، وجعل جلَّابيتَه تهتزُّ مع ضلوعه!

هو شيخٌ واعظ، وإمامٌ حافظ، ولكنْ.. أليس للشيخ قلب؟! أليس لصدره أشواقٌ تمدُّ ألسنتَها كألسنة جهنم؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله. أستغفرك يا صاحبَ الملكوت الأعلى. ها هو القلبُ اللعين يأخذني خطوةً في طريق الغواية!

سعل وكأنه يطرد شبحَ الشيطان من ضلوعه، وصاح بزوجته: أسرعي. لقد فسدت الأرض.

دخلا لعيادة الطبيب في مدينة (بوخوم) الألمانية، وأثناءَ الانتظار بدت زوجته لعينيه في منتهى القبح. يا لطيف.. ما هذا؟! بدا وجهها حين رفعت عنه الغطاء كرةَ لحمٍ مترهلةً، في أعلى الكرة عينان جاحظتان كأعين الضفادع! زمجر غاضباً:

- كم مرةً قلتُ لكِ: لا أريد أن أدخلَ جهنمَ بسببك.

أسرعتِ المرأة، فأسدلت غطاءَها. بعد أن غادرا مبنى العيادات كان الجو حاراً. حرٌّ مفاجئ ما زال يهاجم طقسَ المدينة الباردة منذ يومين! مع خطواتهما الأولى على الرصيف رأى منظراً جعل صوتاً

يخرج من مسامات جلده: اِلحقني يا مولاي! كان الأفق ممتلئاً بالشورتات الملونة! شورتات نسائية قصيرة..

شبر ونصف!

شبر وربع!

شيء ساحر، باهر على مدِّ النظر، لا يشبع منه القلبُ ولا النظر! شيء يعيد الشيخَ إلى صباه، والجنونَ إلى منتهاه!

أمرَ عينيه بالكفّ عن المشاهدة، فلم تطيعاه! أمرَ دقاتِ قلبه بالتوقف عن الرقص، فأعلنت عصيانَها أيضاً!

آه.. من يدري بحاله؟ هذه الخابية التي بجانبه زوجته الثالثة.. زوجته الهضيلة الثقيلة، وقبلها خابيتان أخريان كلٌّ منهما أقبح، وألعن! لا يدري كيف تزوجهن! هل حظُّ غيره من الدنيا هؤلاء الحوريات الفاتنات، بينما حظه هو معاشرةُ الخوابي؟! اعذرني يا رحمن يا رحيم. لقد أدَّيتُ فروضَك، لم أتأخر عن صلاة أو حج أو طاعة، ولكنْ.. أنا من لحم ودم، أنا من وَجْدٍ وغرام رغم اقترابي من الستين.

فجأةً طلعَ في رأسه قرارٌ عجيب: سيطلق الآن لعينيه العَنان، وسيقضي الليلَ مستغفراً حتى الصباح! ولكنْ.. ماذا يفعل وهو محاصر برقابة زوجته الخبيثة رغم تظاهرها بطاعته؟!

في الساعة الخامسة عند انصراف الموظفين والموظفات قامت قيامة الجمال! جناتٌ من الألبسة البسيطة المدهشةِ الانسجام مع ما تحتها!

صعدا إلى الباص، وهناك جلست واحدةٌ أمامه آخذةً راحتَها تماماً في طريقة الجلوس، ربما لأنه- في نظرها- كهلٌ مهرهر، لا يأبه بما يرى، وليت كلَّ بنات (بوخوم) يأخذن راحتَهن أمامه أيضاً.

بقيا في الباص ربعَ ساعة في طريق الفردوس الصاعدِ إلى سِدرة المنتهى، ثم للأسف وصلا، وكان عليه أن ينزل. آخ أن ينزل!

أثناءَ النزول لاحظت زوجته أنه اقترب من إحداهن أكثرَ من اللازم، فتمتمت ضاغطةً على أسنانها:

- اتقِ الله.

سحبَها من يدها بعنف قائلاً:

- لا ينقصني إلا أنتِ لتذكِّريني بذلك!

كَفَلَقٍ جميل باهر خطرَ له خاطر.. خاطرٌ عجيب، بسيط سيساعده على نَهَلاتٍ أخرى من هذا الجمال الذي لم يشبع منه.

مدَّ يدَهُ إلى جيبه، ثم ضرب كفاً بكف وهو يقول:

- المنحوس منحوس. هل تعرفين ماذا حصل؟ لقد نسيتُ الوصفة على مكتب الطبيب! أخْ كلُّهُ منكِ.

أمرَها أن تجلسَ على كرسي الحديقة بانتظاره، بينما اتجه إلى الجانب الآخر من الشارع ليركبَ باصاً عائداً إلى المشفى. أمَّا قلبه فقد ملأته آلافٌ من سنابل الشوق تميل على الجانبين.

***

2019/5/26

الشمس تشرقُ من حروفكم

هل يمكن أن تتحققَ الأحلام كلُّها دفعةً واحدة؟ وكأنَّ عفريتَ المصباح خرج لكَ من مصباحه أو من فيلم غرائبي صنعته هوليود أمُّ الغرائب! وبعد الخروج انحنى العفريتُ أمامك قائلاً بأدب جمّ: شبيك لبيك، كلُّ ما تطلبه سيكون بين يديك!

هذا الشعور العذب امتلأت به قلوبُ الكتَّاب في إحدى البلدان العربية حيث جمعَهم مسؤول كبير مورَّد الخدين، برَّاق العينين، حليوه، هو رئيس الوزارة الجديد، ما مِثله من قبل، ولا من بعد..! شعروا حين أخذ يتكلم عنهم أنَّ عسلَ الدنيا كلَّه ذابَ تحت لسانه! وأنَّ حنانَ الأمهات جميعَهُ غادر قلوبَهن، وعسكَرَ في بستان قلبه!

بعد انفضاض المجلس وصل الشاعر (بهجت الحَنَش) إلى بيته في غاية السعادة، كأنه فاز بجائزة أمير الشعراء! بدأ يروي لزوجته ما جرى، وقد لبسَ بنطالَ بيجامته فقط، بينما ظلَّ عارياً من الأعلى، كأنه برتقالةٌ نصفُ مقشَّرة. أمَّا هي فسألته بلسان يعشق المال، ويكره الشِّعر:

- يعني هل هناك قروش على الطريق؟ مكافآت؟ دولارات؟
- قلتُ لكِ مراراً: ليس المالُ هدفي من مسألة الكتابة، لكنَّ المالَ، وأحسنَ منه، وأحسنَ من الأحسن في الطريق إلينا!

جلس الحَنَش فوق السرير، أمامَه على الطربيزة كأسُ شاي يدلق دَفَقاتٍ من سائلها الدافئ في حلقه، فيعذب صوته:

- لو كنتِ معنا لما صدَّقتِ، وَعَدَنا بتحسينِ الأحوال المادية للكاتب، وتجويدِ صناعة الكتب، وحَجْزِ الصف الأمامي في مسيرة البلد ليكون لنا، وقد قال في خطابه عبارةً رائعةً.. رائعة أبكت بعضَنا، وكادت تبكي بعضَنا الآخر: الشمس تشرقُ من حروفكم أولاً.

دفعَ الحَنَش ما بقيَ من الشاي في فمه، ثم قال:

- والأحلى يا زوجتي الغالية أنه- بعد أن انتهى من خطابه- جلس بيننا كأنه واحدٌ منا ناسياً رتبتَهُ الوزارية، حلَّ ربطةَ عنقه قائلاً: نريد أن نبحث لمؤسستكم عن اسم جديد جميل بدلاً من اسمها الباهت، فاقترحنا عليه ما يلي: مؤسسة أزهار الفكر- نبع الثقافة- الإشعاع الإبداعي، فقال: لا. عندي اسم أجمل، هَمَسَهُ لي قلبي قبلَ لحظة، اسمٌ بسيط للمؤسسة، هو: (أحبابنا كُتَّابُنا).

جلس الكتَّاب على باب الأمل ينتظرون تحقيقَ الوعود التي انطلقت كمطر كانون من فم الوزير الكبير! مرَّ شهر، شهران، ستة، سنة، ظلت فيها الوعود كبذرة في تراب الأمنيات! لم يظهر لها برعم أو ورقة! وقد فوجئوا بأمر غريب، فصاحبُ الوزارة أطلقَ مثلَها لكلِّ من التقاهم! للقضاة، والمعلمين، والخياطات، وعمَّال النظافة، واستخدم العبارةَ الساحرةَ نفسَها!

للقضاة قال: من ميزانكم تشرقُ الشمس أولاً..!

للمعلمين: من طبشوركم تشرقُ أولاً..!

للخياطات: من تنوراتكم التي تَخِطْنَها تشرقُ أولاً..!

لعمال النظافة: من مكانسكم تشرقُ أولاً..!

***

2019 /6 /10

صَفْنان بن صَافن

كلَّ يوم تقريباً يقوم (صفنان) بطلُ هذه القصة بأمر غريب.. يفكُّ رأسَهُ، يهزه، ويدقه على الأرض لينظفه مما فيه من أشياء مزعجة.. هموم من العيار الثقيل، مخاوف جهنمية، وشيش، أزيز، صفير، نقّ من الزوجة والأولاد، براغيث تدخل إليه مع الهواء الملوث، ونشرات الأخبار، وداخلَ الرأس يجد صفنان أشياءَ أخرى لا اسمَ لها، فيصيح: يا ألطاف الله!

عمليةُ النفضِ هذه غايتُها إراحةُ الرأس قليلاً، وتخفيفُ حالة الصَّفْن شبه المزمنة عند صفنان.. تلك التي تذهب به نحو آلامٍ أو أحلامٍ عجيبة غريبة، ورغم النفض المتكرر الذي يقوم به صفنان لرأسه إلا أنه يعود سريعاً كما كان، فيبدو بطلنا سارحاً في الملكوت، بؤبؤاه متسمران في وسط عينيه أو ساحلان إلى الأسفل، فمه مفتوح إلى المنتصف، وكأنه باب سيارة معطوب، ولا يمكن إغلاقه، إذا حاكيتَه من الشرق يرد عليك من غرب الغرب، والمهم أنه يتعرض لمواقف صعبة، وإليكم ما جرى معه أخيراً:

قالت له زوجته ذات عصر: الحَّمام ساخن، ادخلْ إليه، وأعطني ثيابك لأضعها في الغسالة.

عقلُ صفنان في تلك اللحظة كان يتجه إلى مجرى بعيد جداً، فهو يفكر كيف تمَّ تزوير انتخابات النقابة في المؤسسة التي يعمل فيها رغم

مئات العيون المفتوحة، والآذان المنتبهة، وكان متوقفاً بالضبط أمام جملة قالها أحد البسطاء: الصناديق مثل ضمائرنا يا شباب يلزمها ليفة وحمام.

قال صفنان لزوجته التي تداخلَ كلامُها بما يفكر فيه: طيِّب، طيب.. نأخذ الصناديق يا ستي إلى الحمَّام كما تأمرين، ولكنْ.. هل الليفة جاهزة والصابونة؟

فتحت الزوجة فمَها الذي يتسع لبطيخة بالعرض، ولم تستطع إغلاقَهُ لمدة نصف دقيقة!

في اليوم الثاني جرى له ما هو أسوأ: استدعاه مدير المؤسسة، قال وكأنه مذيع يعلن عن حرب وشيكة:

- كبير المفتشين سيكون عندنا بعد ساعة. استعد يا صفنان، أصغر غلط معه يخرب بيوتنا. السجلات مهمة، لكنَّ الأهم منها بكثير أن تنحني أمامه، وتذكر بعد اسمه ألقابه السبعة التي يعتز بها جداً.. جداً.

وحرصاً على مسألة الألقاب قامت المؤسسة بأمرٍ من المدير بطبعها على الكمبيوتر، وتوزيعها على جميع الموظفين والموظفات ليحفظوها عن ظهر قلب. دخل صفنان إلى غرفته، قام بعملية نفضٍ سريعة لرأسه، وراح يردد الألقاب كما يفعل أطفال الروضة بأناشيدهم: النزيه، المَهيب، رفيع الجناب، صاحب التاريخ الطويل، الخبير، البارز، أبو الأوسمة والجوائز.

من الغرف الأخرى كانت تصله أصواتُ الترديد، فينمطُّ وجهه كأنه علامةُ تعجب طويلة، ثم يضحك ضحكة بلهاء، ويعود إلى ترديده الخاص، وهو يشعر بأن رأسه يرجع إلى احتشائه المعهود ليصبحَ هو في حالة صَفْنٍ متصاعدة.

دخل المفتش إلى المؤسسة بين صفين من سلالم الورد، بجانبه المدير معلِّقاً على وجهه ابتسامةً أكبرَ من لحاف، وخلفهما يتراكض الموظفون والموظفات كأكياس نايلون يدفعها الهواء، أما صفنان فمرَّت تحت عينيه وردة حمراء عَلِقتْ فيهما: (غداً عيد الحب. لو كانت له هذه الوردة، فلمن يعطيها؟ للزوجة؟ أعوذ بالله. إنها تفضِّل شيئاً يخص المعدة! للحبيبة؟ من أين يا حسرة؟ ليس عنده حبيبة. إذن سيقف على الطريق، وإذا مرَّ عاشقان، فسيمدُّ ذراعَه إلى أقصاها غارساً عودَ الوردة بين السبابة والوسطى ليقطفها أحدهما. قد لا يشكرانه، وقد لا ينتبهان إلى وجوده، وقد يظنان أنها وردة نابتة في الهواء، المهم أنهما سيفرحان، وهو بهذه الطريقة سيشارك في عيد الحب).

طلبَ المفتشُ أن يحضر صفنان إليه بعد أن التقى بعدد من الموظفين، انحنى صفنان قليلاً، ثم بدأ يذكر الألقاب: النزيه، المَهيب، رفيع الجناب، وقبل اللقب الرابع: (صاحب التاريخ الطويل)، انتبه إلى شيء عجيب: رأس المفتش ملتصق مباشرةً بصدره! أين الرقبة؟! رقبة المفتش يا ناس!! هل خَبَطَهُ أحدٌ على رأسه، فغارتْ بين ضلوعه؟ أم أنَّ قاعدتها عند أعلى صدره فيها رخاوة، فانزلقتْ تدريجياً بين كتفيه؟ كما يحدث للأعمدة التي يسرق المتعهدون الحديدَ والإسمنت

من قواعدها! رقصتْ فوق خواطر صفنان المتلاحقة ضحكة عابثة، فتساءل: إذا كانت قاعدة الرقبة رخوةً مثل الحلاوة.. ألا يعني ذلك أن رأس المفتش سيلحق برقبته إلى تحت! رفَّ صفنان بعينيه، فوجد المفتش بلا رأس! معقول؟ نعم.. إنه بلا رأس!

والأغرب أن نافذةً انفتحت فجأة في صدر المفتش ذي الجسم السمين تحت ياقة قميصه، وظهر الرأس فيها، ومن هناك راحَ يرشقُ صفنان بنظراتٍ كاوية!

سأل صفنان نفسَه لماذا هو غاضبٌ هذا المحترم؟ هل غلطتُ سهواً في حقه؟ أيكون فمي مثلاً ضحكَ منه ضحكةَ استهزاء دون أن يشاورني؟ أم بدلاً من أن أقول: (صاحب التاريخ الطويل)، قلتُ: (صاحب العنق القصير)! حاول صفنان أن يكمل سرد الألقاب ليرضيه، ولكنْ آه.. فـ(الخبير) قاله: (البير)، و(البارز) قاله: (المُخاوز)!!

نزل صوتُ المدير في أذنيه كطلقات رشاش: بغل، أهبل، مسطول!

انتفض، قرَّر أن يعيد الألقاب من الأول، هيَّأ لسانه، فتش في ذاكرته، فلم يجد فيها شيئاً، وكأن مكنسة مرَّتْ على محتوياتها! ماذا يفعل؟ أخرج الورقة المطبوعة التي استخدمها في الحفظ، فَتَحها داخل كفه، وأخذ يقرأ بطرف عينه حتى لا ينتبه المفتش والمدير إليه، لكنَّ غضبهما زاد، أعادها مرة ثانية بصوت أعلى، غنَّاها، رقص بها، غيرَ أنَّ وجهيهما ظلَّا يقطران سماً، بل إنه سمع أحدَهما يزعق به: برَّه!

***

صفنان مستلقٍ على ظهره في مكانٍ ما.

من تحته سريرُهُ؟ سريرُ هواجسِهِ؟ الله أعلم. رأسُه بعد ما جرى، وخلافاً للمعتاد في حالة ممتازة! إنه يتذكر كلَّ شيء، ويعرف أن شيئاً سيئاً ينتظره، فيضحك في داخله ضحكة تعادل جملة: (شي بيهوِّي)! قد يحققون معه لأنه أهان المفتش، وقد، قد... لكنه مستعد حتى لو نصبوا له محكمة:

- اسمُك؟

- صفنان بن صافن، ورثتُ الصَّفْن عن أبي، وقد أُورِّثُهُ لابني.

- كيف تجرأتَ على إهانة المفتش؟!

- أنا لم أدرِ كيف وقع الأمر؟ لعل عقلي تصرَّفَ دون أن يأخذ رأيي.

- هل أنتَ اثنان؟!

- أنا يا سيدي اثنان، ثلاثة، عشرة. عِلْمُها عند ربي.

يغضب القاضي، فيضحك صفنان ضحكتَهُ التي تعادل جملة: (شي بيهوِّي)، وتأخذه بعيداً نسمةٌ تكرج في صدره كَرْجةَ طفل، تُوصِلُهُ إلى عيد الحب، فيجد نفسَهُ على الطريق يبسط ذراعَهُ بوردة حمراء غارساً عودَها بين السبابة والوسطى، منتظراً عاشقين يقتربان ليقطفها أحدهما.

***

ما لا يُمحَى

وجدَ شابٌّ حسَّاس نفسَهُ في مكان مَهيب!

قلَّبَ عينيه في المكان، رأى رجلاً يكتب فوق طاولة. الرجل وقور، غامضُ العمر، كأنه عاش في كلِّ العصور!

- ماذا تكتب؟ (سألَهُ)

أجاب الرجل: أُسجِّل ما يجري في الدنيا، وهذا عملي.

تفكَّرَ الشاب، ثمَّ هتف:

- أنتَ الذي يُسمُّونه.....؟

- نعم. أنا الذي يُسمُّونه.....

صَمَتَ الشاب، سار خطواتٍ كأنه يهمُّ بالخروج، لكنه عاد قَلِقاً وفي شفتيه سؤال:

- قلتَ لي إنك تسجِّل، فهل ستسجِّل ما يجري في أرض العرب هذه الأيام؟

باقتضابٍ ردَّ الرجل:

- سجَّلتُ وانتهيت.

ما كاد الشاب يسمع الجواب حتى انقلبَ كيانه، أخذ يروح ويأتي في المكان، ويتمتم بكلام غامض، وحينما هدأ قليلاً سأل الرجلَ:

- بالله عليك سجَّلتَ؟ وهل كتبتَ عن....؟

- نعم كتبتُ عن.....

- يا لطيف. هذا عار.

- عار، ولكنْ لا دَخْلَ لي فيه.

- طيِّب. وتلك القصة الرهيبة التي جرتْ في مدينة..... هل كتبتَ عنها شيئاً؟

- عن تلك القصة الرهيبة التي جرتْ في مدينة..... كتبتُ كلَّ شيء.

- الله أكبر. الأمرُ فضيحة تضع الرأسَ عند القدمين.

- فضيحتُكم أنتم. أنا لا شأنَ لي فيها.

- آه.. آه.. وما جرى على الحدود بين الدولتين المتجاورتين، دولة..... ودولة..... هل أشرتَ إليه؟

رفعَ الرجل حاجبيه وهو يقول:

- وهل من المعقول أن يقع ذلك الحدث المدوِّي بين دولة..... ودولة..... ويبقى قلمي غافلاً عنه؟

أخذ الشاب يضرب بكلتا يديه على رأسه، ويتمتم:

- رحمتَك يا رب. انفضحنا.. انفضحنا.

ثمَّ أخذ يدور في موضعه، ويحكي مع نفسه، بينما غادرَ الرجل مكانَهُ، وجاء من خلفه ليستمعَ إليه، كان يقول:

- يا رب هناك ألفُ حكاية وحكاية ألعنُ وأسوأ وأقبح!

هناك ألفُ حادثة تُشيب الرأس!

ألفُ خبر مُزلزِل، ألفُ نبأ من هوله ينكسر الظهر! رباه هل تراه عَلِمَ بذلك أيضاً، وكتبَ عنه؟

جاء الرجل إليه من الأمام، قال:

- ولو. كلُّ ذلك صار سطوراً في أوراقي، أم تريدني أن أُقصِّرَ في عملي؟

يَبِسَ لسانُ الشاب، تهدَّلَت كتفاه، سار يائساً نحو الباب، لكنه عاد فجأة، انحنى أمام الرجل قائلاً:

- لي رجاء. أتوسل إليك، أبوس يدك.

- ما هو؟

- أن تمحو ما كتبتَهُ في الحال. آه.. أشعرُ أنَّ صفحاتِكَ صارت من أمامي ومن خلفي، فكيف أسير في الطريق؟! وكيف أنظر إلى وجهي في المرآة؟!

ضحك الرجل بوقار، قال واضعاً يدَهُ على كتف الشاب:

- سامحك الله تطلب مني خيانةَ مهنتي؟!

ثم أضاف بحزم:

- ما تطلبه مستحيل. حرفٌ واحد لا يمكنني شطبُهُ أو إزالتُه، وأنا أصلاً لا أستعمل الممحاة.

صار الشاب تمثالاً من ملح، سأل ذليلاً منكسراً:

- يعني ما فعلناه ثابتٌ علينا لا ينمحي؟

ردَّ الرجل وهو عائدٌ إلى طاولته:

- لا تسألني. افهَمْها أنتَ بنفسك.

***

قصص قصيرة جداً (1)

مناطحة

فوق خريطة مدينة جميلة تَواجهَ ثوران!

تناطحا بالقرون بعنفٍ.. بوحشية.. بما فوقَ الوحشية!

لم ينتصر أيٌّ منهما، لكنَّ الخريطة تمزقتْ تحتهما، وسقط الاثنان في فمِ فراغٍ مرعبٍ بلا نهاية!

***

أم كلثوم

على قبرها وقف عاشقُ النغم، ذرف دموعاً من صَبا ونهاوند، قال:

- مكانُكِ لم يزل فارغاً.

غطَّتْ بشاشةٌ نورانية وجه القبر، خرج صوتٌ من تحت التراب يقول:

- آه.. في صدري غصَّة، فحتى بعد موتي مازال بعضُ الناس يتهمني بأمور كثيرة، عجيبة، منها نكسةُ حزيران!

ضربَ عاشقُ النغم الهواءَ بيده، قال:

- انتكسوا لأنهم لم يسمعوكِ جيداً.

وعاد يذرف دموعاً من صَبا ونهاوند.

***

احتراقات أب

في عيد ميلاد ولده الشاب لم يدخل الفرحُ إلى قلبه!

دخلتْ سحابةُ حزن.

خلف السحابة قطارٌ من الآهات.

رباه.. كيف يفرح وولده بعيدٌ عنه؟! لاجئٌ في دولة أوربية.

الولد يقول: إنه سعيد، يكذب كي لا يقلقوا عليه.

إنه- في الحقيقة- محزونٌ، مكروب، منفرد كجذع شجرةٍ يابسٍ في رأس جبل.

ذلك المسكين كان ابنَهُ وصديقَهُ أيضاً، يعملان معاً في مكان واحد، وبرحيله حلَّتْ به خسارةٌ مزدوَجة!

كحصانٍ مرتبك أخذَ الأب يدور في غرف البيت، ولَّما دخل غرفةَ ولده الغائب وجد بانتظاره مجموعةَ أسئلة ساخنة:

(متى يتزوج ذلك الولد الذي بلغ الثانيةَ والثلاثين؟ كيف يجد ابنةَ حلال في بلدٍ غريب؟ من أين يأتي بالمال؟ متى، متى....؟ كيف وكيف؟)

تحوَّلتِ الأسئلة إلى نبال، انطلقتْ نحو عيد الميلاد، فسقط العيد شهيداً!

***

معمل الأيام

في زمن الحرب قَرِفَ من أيامه، صبَّ عليها برقَهُ، ورعدَهُ، وشتائمَه.

اتجه غاضباً إلى معمل الأيام، قال للعامل هناك:

- اسمع. أريد أياماً جديدة.. أياماً مختلفة. هيَّا افتح دفترك، وسجل المواصفات:

* أيامي الجديدة أريد أن أنام فيها هانئاً، فلا يوقظني صوتُ قذيفة أو جعير طائرة.

* أريد أن يذهبَ اللونُ الأحمر الذي يملأ الطُّرق إلى جهنم، وتعودَ بهجةُ الألوان كلِّها، ولا سيما الأبيضُ النقيُّ الطاهر.

* أريد نشرةَ أخبار- حين أفتح التلفزيون- تتحدث عن زيارات المحبة بين المسيحيين والمسلمين، بين الشيعة والسُّـــنَّة، بين جميع الطوائف.. جميعِها دون استثناء.

* أريد مكنسةً عملاقة تَكْنُسُ الأغرابَ كلَّهم من وطني. هؤلاء الذين احتلوا دورتَهُ الدموية، وعينيه، ورئتيه، وتلاعبوا حتى بتركيب خلاياه!

* في أيامي الجديدة أريد وطناً باسطاً ذراعيه، فوق كفه اليمنى كتابٌ مفتوح، وفوق اليسرى غصنُ زيتون، ومن حوله أطفالٌ يغنون:

بلدي، بلدي

لي، ولولدي

بلدي أغنيةٌ من نورْ

ألَّفَها تاريخي، غنَّاها العصفورْ

***

المرأة النائمة

ما زالتْ بعد ثلاثٍ وثلاثين سنة من الزواج قادرةً على تحريك الأوتار الداخلية في روحه.

تُحرِّك أوتارَهُ بأنوثتها، بخفة دمها، بحضورها الذي يشبه حضورَ فراشة.

لقد ذبُلَ الجسم قليلاً، لكنَّ أشياءَ أخرى لم تذبل.

كانت نائمة، وقد ذهبَ نصفُ حجمها بسبب سرطانٍ غادر، مرَّ بها، ثم رَحَل.

استيقظ قبلها صباحاً، مرتْ عيناه بخشوع على جسد غدا كأنه من عالم الأطياف!

أخذتْهُ رعشةُ حزنٍ صوفية، فانقلبَ كيانُه كلُّهُ إلى كلماتِ دعاء:

رباه احفظْها لي.

هذه المرأة هي بقيةُ أنفاسي في هذا العالم.

أنا حطامُ رجل كان، دهسَتْني عجلاتُ الزمن، وعجلاتُ الحرب السورية.

أنا مستنقعُ وجعٍ. أنا غبار.

منكَ يا سيدي أتسوَّلُ لها ثوباً جديداً من العافية.

دماً جديداً لقلبها.

أتسوَّلُ ضحكةً من ضحكاتها القديمة.

عصفورَ فرحٍ مجنونٍ ينطنطُ في عينيها.

لو بقيَتْ من جسدي بقيةٌ صالحة لقلتُ: خذها، وأعطها هديةً لرفيقتي.. لحبيبتي.. لقدِّيستي.

***

تحريك الحصى

ماء.. ماء.

أسمعُ الكلمةَ من جوفي.

من جوفِ الأولاد وأمهم.

الجميعُ ظامئ. الجميعُ مشتاقٌ إلى رؤية الماء.

رؤيتُه في كأسٍ أو إبريق تبلُّ الظمأ. كأننا حينَ نعطش نعطش بألسنتنا وعيوننا..!

من الشرفة.. من خلف الزجاج أسمعُ صوتَ أصيصِ الزرع يهتف: ماء.

إنه الأصيصُ الوحيد الباقي في بيتنا. كان له إخوةٌ كثيرون، أهملناهم رغماً عنا، ثم توفاهم العطش في زمن الحرب!

زوجتي معروفةٌ بمودتها للنباتات.. بأمومتها نحوَها، تتفتحُ أزهارها في قلبها قبل أن تتفتحَ في شرفتنا، تُعرِّشُ اللبلابةُ على ضلوعها قبل أن تُعرِّش على حائطنا.. لذلك كلما ماتت نبتة أقامت لها مأتماً صامتاً في عينيها.

الحرب.. الحرب.. الحرب!

طوتْ من أعمارنا أربعَ سنوات..!

الحربُ جَشِعَة أخذتْ منا كلَّ شيء.. حتى وصلَ الأمرُ إلى أباريق الماء، أفرغَتْها، وتركَتْنا للظمأ..!

مرةً أخرى يتردد النداءُ في بيتنا: ماء.

يرتفع، يحاصرني، أسمعُه يأتي من الأبواب والنوافذ. هل تعطش هذه أيضاً؟ أم هي تتعاطف مع الظامئين، فتشاركهم في هتافهم؟

ماذا أفعل؟

ليتني كنتُ ساقيةً أو خابية لقلتُ للجميع: تعالَوْا.

أدورُ بين الغرف!

أسعى كهاجر بين الصنابير المقطوعة!

ماذا أفعل؟ أنا ربُّ أسرة، وربُّ الأسرة عليه أنْ يؤمِّنَ الماء.

أركض إلى الحذاء، أضعُ قدميَّ فيه، وفي نيتي أن أذهبَ إلى المَنْهَل، وهو حنفيةٌ جماعية.. حنفية إسعافية يصطف عندها طابورٌ من أهل الظمأ.. طابورٌ له أول، وليس له آخر.

أحملُ (الجالون)[1]، أهمُّ بفتحِ الباب، لكنني أسمعُ ضحكةً ساخرة.. ضحكةً قادمة من حذائي، يهمس الحذاء:

قبل نصف ساعة كنتَ هناك، ووجدتَهُ مقطوعاً. هل نسيتَ؟!

(1) الجالون: صفيحة من البلاستيك، يملؤها الناس بالماء أو بغيره.

يُذكِّرني الحذاء أنني ذهبتُ إلى المَنْهَل ستَّ مرات هذا اليوم، وأنني فتشتُ عن صاحب صهريج[1] أربعَ مرات، يحكي ويحكي، وكأن تاريخَ ظمئنا مكتوبٌ على جلده!

أعود إلى سعيي بين الصنابير، أفتحُ النافذة، مشهدُ الأبنية في الخارج مخيف..! هل هذا جحيمُ دانتي الذي قرأنا عنه في (الكوميديا الإلهية)؟!

هل يستطيع قلمٌ أن يكتب؟

هل تستطيع ريشةٌ أن ترسم؟

إنَّ لوحةَ الحرب لا يرسمُها إلا الحربُ نفسُها.

عند حلول المغرب يأخذ نداءُ الماء في بيتنا نغمةً موجعة!

لقد ترنَّحَ أو تَعِبَ من نفسه، فصار مبحوحاً!

عيونُ الأولاد- رغم ذبولها- أشعر أنها تتهمني بالتقصير. أتذكَّرُ أبي الذي كان يضحك قائلاً: الصغير هاهاها يظن الكبير على كلِّ شيء قدير!

أخيراً.. تخطر لي فكرة: لماذا لا أقلِّد تلك المرأة التي طبختْ لأولادها الحجارة، فحلموا بالطعام، ثم ناموا؟

كعاملٍ نشيط أجد نفسي في الحارة، بين يديَّ قِدْرٌ أملؤها حتى منتصفها بالحصى، أقفُ أمام الأولاد كمعلم صف، أقول:

---

(1) الصهريج: شاحنة لها خزان، يستعملونها لبيع الماء.

- هذه الحجارة أصلُها ماءٌ يا أعزائي. إذا وضعناها على النار عادت إلى أصلها. الأمر يحتاج إلى وقت، وإلى تحريكٍ دؤوبٍ بالملعقة. هيا استلقوا تحت اللحاف، وأنا سأذهب إلى المطبخ، فإذا سمعتم من هناك خشخشةً عذبة، فاعلموا أنها خشخشةُ الحصى الذي سيعودُ ماءً بإذن الله.

ترسل لي عيونُ الأولاد برقيةً صغيرة: نصدِّق يا بابا، لا نصدِّق. هل ما تقوله معقول؟!

يذهبون إلى تحت اللحاف، لا يستطيعون النوم، وأنا أُحرِّكُ و.. أُحرِّك..!

***

جنَّة العصافير

كزخَّةٍ من مطر الربيع انهمرتْ في رأسِ رجلٍ شائب ذكرى بعيدةٌ عذبة هي ذكرى: (جنة العصافير).

الجنةُ محلٌّ لتربية الطيور أطلقَ عليه صاحبُه هذا الاسم.

يَتذكَّر الرأس أنَّ المحل يقع بين السماء والأرض، فالغيومُ من فوقه، وربوةٌ من تحته، وكأنه مَعْبرٌ إلى السماء!

يتذكَّر الرأسُ أيضًا أنَّ عيونَ الكبار والصغار كانت تطير إلى المحلّ كأسراب الفَراش، وتحطُّ عليه كأنه زهرةٌ أسطورية ساحرة!

كان الرأسُ يومئذ صغيراً أسودَ الشعر، يحملُهُ طفلٌ يلبس صدريَّة المدرسة، وكان الأطفال برؤوسهم الصغيرة وعيونهم الواسعة يجدون صعوبةً في دخول المكان، فصاحبُه متقلبُ المزاج، يطردهم مرتين ويستقبلهم مرة.

بعدَ محاولات دخل الطفل إلى (جنة العصافير)، وهناك ربطتِ الدهشةُ لسانَهُ، وفتحتْ عينيه أمام المَشَاهد التي رآها..

في الداخل غابةٌ تتفوقُ على جميع غابات الدنيا جمالاً وجاذبية!

أشجارٌ كبيرة وصغيرة، أغصانها تتكلم، تقول للزوَّار: أهلاً، مرحباً!

زنودٌ خشبية ناعمة كسواعد الأمهات تقف عليها العصافير، فلا تتعب!

شمسٌ مرحة تسبح في الأعلى تارة، وتتحوَّل إلى عروس راقصة تارةً أخرى تُمطر ضحكاتِها في قلوب الناظرين!

أمَّا المشهد الأعظم فتراه عند صاحب المحل.. ذلك الرجل الذي يكون عابساً أحياناً تجده صار ساحراً بارعاً.. ساحراً حقيقيّاً يُحرك العصافير بنظرة عينيه النافذة العجيبة.

يأمر عصفوراً مثلاً، فيطير من مكانه، ويهبط على كتفه، ينزلق بعد ذلك برشاقة من الكتف إلى الساعد إلى الأصابع، ثم يقف على رأس إصبع واحدة هي السبابة، وكأنه لاعبُ سيرك!

يأمر عصفوراً ثانياً، فيهبط على الكتف الأخرى، ويفعل ما فَعَله الأول حتى يصل إلى أصابع اليد الثانية، فيقف على سبابتها.

بحركةٍ استعراضية يُقرِّب الساحر سبابتيه من بعضهما، فيتبادل العصفوران قبلة، ثم.. يطيران معلنين انتهاءَ العرض!

سطوةُ الساحر تمتد إلى جمهور الزوَّار أيضاً حتى الكبارُ منهم يصيرون طوعَ بنانه، فقد يأمر أحدَهم بإطعام عصفور من كفه أو سقايته، ويأمر واحداً آخر أن يُرهف سمعَهُ لزقزقة عصفور، ثم يحاول ترجمتَها.

بعد ذلك وبصورةٍ مفاجئة ينقلب الساحر إلى شاعر، فيشمل الأطفالَ الحاضرين بنظرة حانية، وكأنه يعتذر لهم عن قسوته حين لا يفتح لهم أبوابَ جنته.

يقف الرجل تحت لوحةٍ مكتوبٍ عليها: (العصفور مَلِكُ الطبيعة. لا تزعجوا المَلِك)، ويطلب من طفلين أن يصنعا محكمة.. أحدهما يُمثِّل

دورَ صيادٍ مُتَّهَمٍ بقتل العصافير، والثاني دورَ عصفور يقوم بالقضاء، وتنتهي المحاكمة بإدانة الصياد وقيامِ جميع الأطفال الحاضرين بالهجوم عليه هجوماً مرحاً ونَقْرِهِ في أماكنَ متعددة من جسمه.

مَشَاهدُ ومَشَاهدُ ومَشَاهد..

الآن.. اختفى الطفل تحت هيئة رجلٍ شائبِ الرأس يحمل على كتفيه أعباءَ إحدى وخمسين سنة.

الرجل تلاحقه لعنةُ الكآبة في دورة يومه من أولها إلى آخرها!

الخوف فتح ثقباً في صدره، وأدخل فئرانه إلى هناك!

في زوايا عينيه جاء وردٌ أسود، وغرسَ الآلافَ من شتوله!

أمَّا الدنيا فكاليهودي شايلوك تطالب برطل من لحمه، وبفرمِ أعصابه بسكين تسنُّها على نعلها!

اليوم شعشعتْ في نفسه ذكرى جنة العصافير بعد أن نسيها زمناً طويلاً.. لاحتْ له كحبل نجاة، وها هو يوجه بوصلةَ قدميه نحوها.

سيذهب إلى هناك ليغسل قلبه بزخاتٍ من الفرح الناعم.

سينظف أذنيه بموسيقا الزقزقة وحفيف الأجنحة.

وفي النهاية سيطلب من صاحب المحلّ أن يُقدِّم تمثيليةً، موضوعُها إنسان يريد أن يتحوَّل إلى عصفور.

***

خد الإمبراطورة

في بلد من بلاد الدنيا الواسعة كَثُرَ الحديثُ عن الحب بين المغنين، والعشاق، والطبالين والزمارين، وحتى بين الشبان العاطلين عن العمل! صار (موضة) يتسلى بها الناس عن أحوالهم التي تُعمي الناظر، ولا تسرُّ الخاطر.

والظاهر أن العدوى.. عدوى الحديث عن الحب وصلتْ إلى الإمبراطورة صاحبة الجلالة، فسألتْ نفسَها وهي تتمشى في شرفة القصر: هل يحبني الناس؟

كانت الإمبراطورة حلوةَ الوجه مكلثمةَ القدّ رغم تقدمها في السن، فانعقدَ حاجباها عند السؤال، ثم انفكَّا، ثم انعقدا تبعاً لحالة الأفكار التي تركض جيئةً وذهاباً في دهاليز رأسها، حاولتْ أن تجيب عن السؤال بنفسها، فقالت:

(يحبونني.. لا يحبونني.. يحبونني ببرود.. يحبونني بحرارة.. آخ يا ربِّي كيف أعرف؟!)

سارت إلى القاعة الكبيرة دائخةَ الرأس، جلستْ على العرش، استعرضتْ تاريخَها منذ استلمت السلطة بعد وفاة زوجها، فوجدتْ أنه- في نظرها- أنقى من الحليب، وأطيبُ من الطِّيب، وأطهرُ من قلب طفل وُلِدَ قبل ساعة.

فجأة امتلأ رأسها بالتصفيق، فقد تذكَّرتْ شاعرَ الإمبراطورية (ياقوت) الذي قال فيها قصيدةً تذيب القلب.. قصيدةً لا تشبهها قصيدة، كانت طويلةً جداً فلم تحفظها، لكنها تتذكر بعضَ أبياتها، وفيها تحدَّثَ عن عدلها ونشاطها ووفائها.. عن زراعة قصب السكَّر التي ازدهرتْ في أيامها.. عن قصب السكَّر نفسِه الذي أخذَ منها الحلاوة.. عن يقظتها التي تجعلُها تطارد أصحابَ البلبلة، فترميهم في براميل الخَلّ ليموتوا ببطء، وتبقى من بعدهم زهرةُ الأمن سالمةً متألقة.

بعد مرور القصيدة في خيال الإمبراطورة، انشرحَ قلبها ووجهها، وعلى فمها ظهرت ابتسامة بطول شبرين، وصل إشعاعها إلى آخر الأذنين، فقد توصلتْ صاحبة الجلالة إلى هذه النتيجة: أنا حاكمة رائعة عظيمة، سلَّمَ الله فمَكَ يا ياقوت، ومثلي يستحق حباً عظيماً، ولكنْ.. هل يعي الناسُ قيمتي؟ هل يحبونني الحبَّ الذي أستحقه؟

قامت الإمبراطورة بأعمالها اليومية، وشيءٌ كالجرس يرافقها بدقاته: رن.. رن. إنّها تريد أن تعرف الجواب عن سؤالها، يجب أن تعرف، وهي إذا أرادتْ شيئاً حصلتْ عليه، أو خططتْ للحصول عليه، ولو كان في سابع أرض أو تحت سبعة أقفال. خصوصاً إذا كان ذلك الشيء يتعلق بشخصيتها الحاكمة التي تضعها فوق كل اعتبار، وهو أمر يبدو على درجة كبيرة من الغرابة لمن كان يعرفها قبل جلوسها على العرش.

كانت يومئذ زوجةَ الإمبراطور لطيفةً ناعمة كجناح فراشة، قلَّما تهتم بالظهور أو المراسم، قلبُها متعلقٌ بالموسيقا، تأخذ كلَّ أسبوع

درسين أو أكثر في العزف على آلة الطنبور، وتغني غناءً عذباً تزداد عذوبته يوماً بعد يوم، فيصفِّق لها (السيد سُـلحفة) أستاذ الموسيقا الملقب بذلك لتقوس ظهره.

لم يكن هدفها أن تصبح مغنية، فالغناء من اختصاص الجواري والقيان، لكنها كانت تستجيب لروحها الشفافة التي تغيرتْ بسرعةٍ غيرِ متوقعة.. حتى إنَّ دروس الموسيقا توقفتْ، والسيد سلحفة يروح ويجيء، ولا يسمع منها إلا جواباً واحداً: للأسف ليس عندي وقت يا أستاذ. لو صرتَ إمبراطوراً لعذرتَني!

في اليوم الثاني جمعت الإمبراطورة الوزراءَ والأعيان، وجهتْ إليهم السؤال الذي شَغَلَها: (هل يحبني الناس؟) فالتوتْ أحناكُهم من فرط الدهشة، وارتفعتْ حواجبُهم، فالأباطرة لا يسألون عادة عن الحب، وإنما عن الانحناء والطاعة!

لم يكن لدى هؤلاء فُسحةٌ من الوقت ليفكروا كيف خطر ببال الإمبراطورة هذا السؤال الغريب؟ أو ليربطوا بينه وبين موضة الحب السائدة، لكنهم تبادلوا نظرةَ تواطؤٍ سريعة، وأجابوا بصوت واحد كالجوقة:

- نعم يحبونكِ.. يحبونك جداً.

- كيف؟

- يتحدثون عنك بالخير في كلِّ مناسبة.

نفختِ الإمبراطورةُ قائلة:

- لا يكفي.

- إذا ذُكرتِ أمامهم أسرعوا فقالوا: مولاتُنا المعظَّمة.. مولاتُنا المعظمة.

- لا يكفي أيضاً.. لا يكفي.

سيطرَ على الإمبراطورة في الأيام التالية هاجسٌ جديد هو أن تعرف المضمَرَ في قلوب الناس، فما عرفتْهُ منهم من الخضوع والابتسام وانحناءِ القامات لم يعد مُرضياً لها.. حتى إنها تمنتْ أن تكون القلوبُ زجاجاً لتضعَ العينَ على جدرانها وتنظرَ ما فيها! وبسرعةٍ عجيبة تطورت النتيجة التي توصلتْ إليها بعد قصيدة ياقوت، فصارت بهذا الشكل: أنا حاكمةٌ مدهشة، اسمي في كل مكان، على العملة، على تيجان الأبنية.. على أبواب المدن، تُحيِّيه الشمسُ عند الصباح وعند المساء، تطير من حوله العصافير والفراشات، فإذا لم يحبَّني الناس، فأقلُّ ما يقال: إنَّ قلوبَهم عمياء. آه.. ماذا أفعل لأجعلها تُفتِّح؟

ذاتَ صباح لمست الإمبراطورة تاجَها، فشعَّتْ من تلك اللمسة فكرةٌ رائعة: قالت لنفسها: يجب أن أكون قريبةً من العيون أكثرَ لأزيلَ العمى من القلوب. البعيد عن العين بعيد عن القلب.

أسرعتْ، جمعتِ الفنانين، أمرتْهم أن يحفروا لها في كل بيت صورةً في الخشب.. خشبِ الأبنوس الطيب الرائحة، ليراها الكبار والصغار طوالَ الوقت، فلا يكون لهم عذر إذا قصَّروا في محبتها.

لم تكتفِ الإمبراطورةُ بذلك، لكنها قامت أيضاً بمجموعة تدابير قد تكون غريبة، مضحكة، وكلُّها يتصل بمسألة الحب:

شعار البلاد كان ثعباناً مفتوحَ الفم، لسانه ممدود إلى الأمام، ينذر بالموت، فوضعتْ. بجانب الثعبان وردة!

الختم الإمبراطوري، وفيه اسمُ سيدة البلاد يتشكَّل في صورة سيف، أضافتْ تحت السيف يدين متصافحتين!

قبل إنزال عقوبة الموت بالمحكومين كان يقال: يا خائنَ جلالة الإمبراطورة. خذ هذا جزاؤك. صار يقال: يا خائنَ قلب الإمبراطورة المليءِ بالحب هذا جزاؤك...!

أما الأستاذ سلحفة فرغم ما جرى لتلميذته الإمبراطورة من تبدُّلٍ كبير فإنه لم ييئس من إعادتها إلى دنيا الأنغام، إنه يعلَمُ أنها مفتونةٌ بصوت الطنبور، حينما تعزف عليه يمدُّ تحتها أجنحةً من النغم، ويأخذها كبساط الريح إلى ملكوت النشوة.

ومما قوَّى الأملَ في نفسه أن الإمبراطورة ما تزال تحتفظ بحجرة الدروس كما كانت حيث الآلاتُ الموسيقية مرسومةٌ على الجدران، تتصاعد منها أنغام يصل بعضها إلى سقف الحجرة مشكِّلاً في الأعلى سماءً من نوع خاص، وفي صدر المكان آلةُ الطنبور تتربع فوق حاملٍ فخم من الخشب الملوَّن، وكأنها سيدةُ الحجرة، يكاد الناظر إليها ينحني أمام جلالها.

بعد مدة من الزمن انتهى الفنانون من عملهم، ومرت شهور على وجود الأبنوسات في البيوت، فأرادت الإمبراطورة صاحبةُ الجلالة أن تعرف.. هل تحسنتْ مشاعر الناس نحوها؟ هل صاروا يحبونها الحبَّ الذي تستحقه؟

وكانت النتيجة التي توصلتْ إليها سابقاً قد حصل لها تطوُّر جديد آخر، فصارت على هذا النحو: أنا الأعظمُ بين حكام بلادي، كلُّ مَنْ سبقني بما فيهم زوجي ليس لديهم بعضُ ما عندي من المزايا. اشهدْ لي أيها التاريخ واعترفْ، بل عليك أيضاً أن تفتخر. وكيف لا أكون كذلك؟ وما قدَّمْتُهُ لأبناء بلدي لم يقدِّمه أيُّ حاكم لأبناء بلده على الإطلاق. الظروف من حولي صعبة وأنا أعمل وأعطي! أعيش وحيدةً وأعطي! فإذا لم يحبَّني هؤلاء فمعنى هذا أنهم بلا ذوق، لا. إنهم لئامٌ، قساةٌ، ظَلَمة. يستحقون العقاب. ولكنْ.. كيف أعرف ما تُخبِّئه صدورهم وراء اللحم، والعظم، والملابس؟!

لمست الإمبراطورةُ تاجَها، فشعَّتْ من تلك اللمسة فكرةٌ رائعة.. بعد أيام أعلنتْ عن مسابقة ضخمة جداً، لها جائزةٌ باهرة، اسمُها: (مسابقة الحبّ الإمبراطوري)!

كانت فكرةُ المسابقة عجيبةً غريبة، لكنّها هامةٌ جداً- كما اعتقدتْ- في الكشف عما تريده، فعدد المتسابقين مؤشر مفيد، وحماسهم مؤشر آخر، وما سيقوله المشتركون في المسابقة يفوق المؤشراتِ جميعاً.

وصلَ خبر المسابقة للأستاذ سُـلحفة، فتجمعتْ في صدره غمامةٌ من الحزن، وتطايرتْ من فمه علاماتُ التعجب: أحقاً ستُجري تلميذتُه مسابقةً للحب؟ وتنفقُ الكثيرَ من الدنانير في هذه الظروف حيث الفقر يحلُّ ضيفاً ثقيلاً في أكثر البيوت، ووجوهُ الناس لوحاتٌ ترسم عليها الكآبةُ أشكالاً تصدم العين وتفتت القلب!

لا بد أن أفعل شيئاً (قال لنفسه)، وأضاف: أنت أيها الطنبور الساحر المختبئ في مكان ما من صدر الإمبراطورة عليك أن تخرج الآن من مخبئك لتنفض الغرورَ والقسوةَ عن أحاسيسها.

حين وقف الأستاذ أمام السيدة الكبيرة كان يحمل في يده مفاجأة.. مفاجأةً مذهلة، جعلتْ صاحبةَ الجلالة تنهض عن عرشها لتأخذ تلك المفاجأة بين يديها، وتطبعَ عليها قبلة! كانت مفاجأة الأستاذ أنه حمل للإمبراطورة أولَ آلة طنبور علَّمها عليها العزف، كانت الآلةُ قديمة، لكنها ساحرةُ الشكل، وقد صنعها بيده، وهي عند الإمبراطورة وعنده مفتاحٌ لعشرات الذكريات الطيِّبة، وأهمها أن سُـلحفة في الدرس الأول أراد أن يثير تلميذته قبل أن يبدأ بتعليمها، فعزف على آلته بكلِّ ما أوتيَ من مهارة. أثناء عزفه كانت التلميذةُ مغمضةَ العينين، وحين توقف ظلت أجفانها مُطبَقة، فظنها قد نامت، لكنها فتحت الأجفان، وملؤها سحرٌ طافح كأشعة القمر، سألها: أين كنتِ؟! فأشارت بيدها إلى فوق.. أي بين النجوم، ثم تنهدتْ بعمق، واقترحتْ عليه أن يمنح هذه الآلة اسماً خاصاً هو: باب السماء.

لم تكن الإمبراطورة قد رفعتْ شفتيها عن الآلة حين اقترب منها كثيراً، وهمس في أذنها:

- أستحلفكِ بما لـ(باب السماء) عندكِ من مكانة أن تعودي إلى دروس الموسيقا، وتتركي مسابقات الحب.

نظرتْ إليه وفي عينها دهشة، فأسرع مضيفاً:

- لندخلْ حجرةَ الدرس الآن. أناملُكِ ابتعدتْ كثيراً عن الأوتار.

تعاقبتْ على وجه الإمبراطورة معانٍ مختلفة.. أوَّلُها أوحى للأستاذ أنها ستوافق، حتى إنَّ رأسَها التفتَ نحو حجرة الدروس، فكاد الأستاذ يقفز عالياً رغم تقدمه في السن، غير أنَّ الوجه ما لبث أن ملأته غاشيةٌ من القلق، ثم الاحتجاج، ثم النفور! وكأنَّ صاحبة الجلالة اكتشفتْ خطةَ أستاذها في التأثير عليها من خلال حبها القديم للموسيقا، فإذا بها تدفع الطنبور نحوه قائلة:

- خذ بابَ السماء الآن، وعد بعد أسابيع، ولا تتدخل في أمر المسابقة، فهذا سيجعلني أغضبُ منك.

خرجَ أستاذ الموسيقا حاملاً آلتَهُ وكلاهما يقول: لم يعد هنالك فائدة.

تسارعتْ إثر ذلك اللقاء التحضيراتُ الخاصة بمسابقة الحب، وفي اليوم المحدد اجتمع المتسابقون في جو ساحر مَهيب، كانت الإمبراطورة قد حَضَرتْ وهي متوترة، لقاءُ الأستاذ ضغطَ على أعصابها من ناحية، ومن ناحية ثانية رأت في نومها آخرَ مَنْ أدخلتهم إلى براميل الخل، شابٌّ واسعُ العينين خرج من البرميل وقد تساقط اللحم عن معظم جسده، نظر إليها نظرةً ساخرة، قال: حب؟! الله يا حب!

أمَّا المتسابقون فكانوا متوترين أيضاً، فقبل المجيء إلى المسابقة سَهِرَ كلٌّ منهم مع نفسه، فألَّفَ في حب الإمبراطورة كذبةً كبيرة رشَّ عليها التوابل، وهو يحلم أن يكون الكذَّابَ الأمهر ليحظى بالجائزة.

أعطت الإمبراطورة إشارةَ البدء، فتقدَّم المتسابقُ الأول، قال وكأنه عاشق هائم:

- آه ماذا أقول يا مولاتي؟ أنا أكثرُ الناس حباً لكِ.. إنني أنحني أمام الأبنوسة ثلاث مرات في اليوم، وأدعو لك بالخير، وماذا أدعو؟ أقول: رباه ارزق الدنيا واحدةً مثلها أو اثنتين، أو اجعلها كالسنبلة فيها مئةُ حبة ليعمَّ الرخاءُ البلادَ والعباد.

ضحكت الإمبراطورة قائلةً:

- انحناء ودعاء فقط؟! حبُّكَ بارد.

قال الثاني لاوياً رقبتَهُ:

- أنا يا مولاتي لو تعلمين بحالي.. أُلَمِّعُ الأبنوسة صباحاً ومساءً، وقبل أن أفعل أيَّ أمر أقف أمامها أسألكِ المشورة، فإذا ظهرَ الرضا في عينيك فعلتُ، وإذا ظهرَ الغضب لم أفعل.

ضحكت الإمبراطورة ضحكةَ استهزاءٍ أيضاً، قالت:

- حبُّكَ بارد، فالولدُ يستشير أباه، والرجلُ يستشير زوجته، وأنا أريد حباً أكبر.

قال الثالث بنبرة ممثل بارع:

- منذ أيام نظرتُ إلى الأبنوسة يا مولاتي، وأمام عظمتكِ ارتجف جسمي، قلت: يجب أن أقدِّم شيئاً لسيدتي.. شيئاً أعظمَ من الكلام والمال، جئتُ بولدي الوحيد، لأذبحه أمامها قائلاً: اشهدي أنني أحبكِ.. اشهدي. لكنكِ لم تجيبي! حتى عيناك لم يظهر فيهما أيُّ معنى! انفعلتُ كثيراً، غلى حبُّكِ في قلبي، والسكينُ مازالتْ في يدي، فلكزتُ خدَّكِ بها لتنتبهي إليّ، لتعطيني لمحةً أو إشارةً أو...

قاطعته الإمبراطورة وقد انعقدَ حاجباها، وارتختْ شفتُها السفلى حتى كادت تلمس صدرها:

- لكزتني بالسكين؟! رائع.. رائع! أكملْ.

ظن المتسابق أن الإمبراطورة أُعجبتْ به، فتابع بحماس:

- إذا لم تصدِّقي فيمكن أن نأتي بالأبنوسة إلى هنا لترَيْ على الخد نُقْرةً ناعمةً بيضاء تَرَكَها رأسُ السكين في خشب الأبنوسة الأصفر.

تظاهرت الإمبراطورة بالانشراح، فسألت المتسابق:

- طيِّب.. هل تذكر أيها المحبُّ الصادق أيَّ الخدين تكرَّمتَ فلكزتَهُ بسكينك؟

صاح المتسابق فرِحاً معتقداً أنه سينال الجائزة:

- الخد الأيمن يا مولاتي.. الخد الأيمن.

انتفضت الإمبراطورة، راحتْ وجاءتْ كأنها زوبعة، صرختْ، فارتجف الحاضرون جميعاً:

- تلكز خدي بسكينك يا حقير، وتريد جائزة؟! طبعاً ستأخذ جائزةً أكبرَ مما تتوقع.

أُلقيَ المتسابقُ الثالث في برميل الخلّ، أوقفت الإمبراطورة الجائزة، وظلتْ حائرةً تفتش عن طريقةٍ مناسبة تعرف بها: هل يحبُّها الناس؟

***

المتنبئ بالأغاني

لجدي عادةٌ حلوةٌ، غريبة- كما أخبرنا أبي- هي أنه كان يقوم بين حينٍ وآخرَ بما يلي:

يركض نحو شجرة الزيتون الموجودة في بيت العائلة مرهفاً أذنَهُ نحو السماء، وهو يقول: هُس! فيصمتُ كلُّ مَنْ في البيت، وجهُهُ في تلك اللحظة يبدو في غاية البهاء، كأنه يتلقى وحياً، أو يسمع أغنيةً فاتنة لم يسمعها أحد قبله!

لم يكن الجد يصغي بأذنه فقط، وإنما بروحه، وقلبه، ومسامه، وحتى ثيابُه كانت تصغي معه! أمَّا الصوتُ- الذي لا يسمعه أحد سواه- فيأتيه من مكان بعيد، وهو ليس صوتاً عادياً، لكنه ممتزج بالنور، والنسيم، وحين يصل إلى شجرة الزيتون يمرُّ بين أغصانها، فيصبح أخضرَ اللون.

حينما يعود جدي إلى حالته الطبيعية يخبر أسرتَه أنه سمع أغنية، خلاصتُها أنَّ فرنسا- وكانت تحتل سوريا في ذلك الوقت- ستسمح بتشكيل حكومة وطنية! وبالفعل تتشكل حكومةٌ وطنية بعد أسابيع!

تكرَّرَ هذا الأمرُ كثيراً، فصار أبي- الذي يعشق اللغة العربية- يصف جدي بأنه المتنبئ بالأغاني، أمَّا الباقون من أفراد الأسرة، فأطلقوا عليه لقب: أبو البشائر.

تنبَّأ جدي- من خلال أغانيه- بأمور رائعة، لها طعمُ العسل على مستوى الأسرة، وعلى مستوى الوطن، وكلُّها حصلتْ!

على مستوى الأسرة تنبَّأ بانتساب أبي إلى كلية الآداب في جامعة دمشق، ونجاحِهِ فيها، تنبَّأ بزواج عمتي فوزية زواجاً سعيداً، بشفاءِ عمي مصطفى من مرض الرئة اللعين!

على مستوى الوطن تنبَّأ بخروج فرنسا واستقلال سوريا، بتحسُّن الأوضاع المعيشية، والتعليم، بقيام الوحدة بين سوريا ومصر، وحتى على مستوى بلدنا إدلب كانت له تنبُّؤات سارَّة جداً، منها تغذيةُ البيوت بشبكة مياه قادمة من قرية (مَرْتِيْن)! ووو.

لكنَّ جدي توقفَ عن تنبؤاته فجأةً! أو أنَّ تلك التنبؤاتِ المحمولةَ على أجنحة الغناء حجبتْ نفسَها عنه! أصابه هذا التغيُّر بعد زلزال ضربَ بلادَ العرب هو حربُ (67)، حيث تهاوت كصندوق من الكرتون ثلاثُ جبهات عربية أمام هجوم كيانٍ أصغرَ من صغير هو: إسرائيل!

لم يكن تعطُّلُ عالَمَ التنبؤات حدثاً هيِّناً في بيت الجد، فقد ترك أثراً عميقاً فيه، وفي أسرته كلِّها.

بالنسبة إليه صار صَمُوتاً! لم يعد يقترب من شجرة الزيتون! يقضي وقتَ فراغه في قراءة المصحف، وفي تقليب صفحات الجرائد الوطنية التي كانت تصدر في فترة الصراع مع المستعمر الفرنسي، حتى الشجرةُ نفسُها حلَّ بها ذبول مفاجئ! كأنها كبرت عشراتِ السنوات في شهر واحد..!

وبالنسبة للأسرة افتقد الجميعُ ذلك الطعمَ العذبَ الذي حملته إليهم بشائرُ جدي أو تنبؤاتُه، ومرة سأله أبي، وكان بين يديه أصيصُ الريحان الذي يحبه كثيراً: أين اختفت تلك البشائر؟ فجاء صوتُه غاضباً، وهو حادُّ الطبع رغم طيبة قلبه:

- لا أحدَ يسألني عن شيء بعد اليوم. إياكم.

انفجرت في عينه دمعة، خَفَضَ رأسَهُ ليخفيها عن أبي، فتلاحقت دموعه، وتساقطت فوق أوراق الريحان الناعمة!

***

وردة لحمار المفاجآت السعيدة

مدهشٌ هذا الحمارُ الذي أتحدثُ عنه!

مُلكيتُهُ تعود لأسرة صديقي أحمد. من الخارج هو حمار عادي، لونُه رمادي فاتح، يعمل كغيره في الفلاحة والنقل. اللافت أنه ذكيٌّ، يقرأ المشاعر!

ينظر إليكَ مثلاً، ثم يخفض رأسه، ثم يرفعه قائلاً بعينيه:

(أنتَ عاشق. أعانكَ الله).

أو (أنتَ مديونٌ مهمومٌ. لو كان عند أمثالي نقود لدفعتُ سريعاً ما عليك).

كنا أنا وصديقي أحمد يومئذ في عمر المراهقة، بدأتْ تتفتح فينا زنابقُ عجيبةٌ ملتهبة، ولدينا شوقٌ جارف إلى معرفةِ أمورٍ كثيرة حول الصبايا اللواتي كنتُ أنا وإياه نطلق عليهن تسمياتٍ خاصة:

الشَّحرورات!

الغَزَالات!

الأميرات السفَّاحات بنات الكلب!

لأنهن يُشعلننا ناراً كلَّما مررن أمامنا في طريق أو خطرن في البال.

شوقُنا أنا وأحمد إلى اكتشاف عالم الصبايا المغلَّفِ بالغموض، والسحر، وارتعاشِ القلب كان يفوق شوقَ سوانا من المراهقين، لأننا من الصنف الخجول الذي لم يعرف أيَّ تجربةٍ عاطفية بعد.

كنا في تلك الأيام من ستينيات القرن الماضي نهوى المطالعة، نلتهمُ صفحاتِ الكتب كأرنبينِ مرحين، ونردّد ما فيها من أشعارٍ وكلماتٍ جميلة على سبيل التفاخر تارة، والإعجابِ بها تارة أخرى.

من أهم ما اشتقتُ لمعرفته شخصياً تلةُ الزَّغَب الصغيرة التي تنبتُ على صدور الفتيات، وبجانبها تلةٌ أخرى تماثلُها، ولها اسمٌ يمرُّ على رأس الجبال، فيدوِّخُها: (النهد)!

نبتَ لهذه الكلمة قدمان، صارت تركضُ بهما بين قلبي، ورأسي، وخيالي!

نبتَ لها ذراع أخذتْ تتكئُ بها على ضلعي من الداخل!

نبتَ لها فمٌ، وبه اندفعتْ تُسمعُني أغاني صاخبة!

النهد.. النهد.. النهد. يا لطيف من هذه الكلمةِ المعبَّأةِ بالسكَّر والبارود!

يا لطيف! أحمرُّ خجلاً من نفسي، من السماء، من أبي الذي ربَّاني على الحشمة.

أجد نفسي فوق السجادة أصلي، وأستغفر، بل إنني قررتُ أن أنسى هذا الشيءَ اللعين، كأنه صديقٌ أساء إليَّ، فقاطعْتُه.

بعد نجاح المقاطعة ببضعة أيام وقع أمرٌ طارئ: كنتُ مع صديق العمر أحمد فوق ظهر حمارهم العجيب. الحمار يسير بنا إلى كَرْمهم في الطرف الشمالي من المدينة. قال أحمد: اسمعْ، وأخذ يترنم بقصيدة لنزار قباني، عنوانها: (وحشية النهدين).

كدتُ أسقط من مكاني، وأنا أسمعها، ومن أبياتها:

كرتانِ من زَغَبِ الحرير/ من الصباحِ الأكرمِ

متمردانِ على السماءِ/ على القميصِ المُنْعَمِ

أدار الحمار عنقه نحونا، فلاحتْ في عينه نظرةٌ خبيثة. قلتُ لنفسي: أعوذ بالله منه. هذا حمارٌ يحب الشعر! لا..لا. إنه يتجسس علينا، أو ربما يفكر فيما أفكر فيه!

المهم أنَّ ابنَ الحرام الذي يشغلني (النهد) عاد منتصراً..! بل إنه تمثَّلَ لي بكامل بهائه، وهو يقول: تهربُ مني؟ مستحيل. أنا الطرقاتُ كلُّها. أنا الصباحُ والمساء. أنا الأقوى. أنا (كلاي)، سأجهز عليك بالضربة القاضية.

وبالفعل كان محمد علي كلاي يومئذ سيدَ الملاكمة!

العجيب.. أنني صرتُ كلما مرت فتاةٌ في الطريق أرى الكرتينِ في صدرها تدفعان قميصَها يميناً، يساراً بالتناوب، وكأنهما قبضتا ملاكم!

الأعجب أنَّ ابنَ الحرام المذكور صار يظهر لي في كلِّ شيء أو بالقرب من كلِّ شيء، كأنه عفريت!

فنجانُ الشاي المقلوب أصبح نهداً..!

كبَّةُ الصوف التي تنسج منها أمي!

البرتقالات، التفاحات!

وحتى لمبةُ الكهرباء المدوَّرة!

ملحُ البحار تجمَّعَ في حلقي، ومعه كلُّ الفليفلة الحمراء الحادة الموجودة في حارتنا! صار لي هدفٌ جديد أن أرى ذلك الشيءَ الباهر رؤيةً حقيقية. دقيقةٌ واحدةٌ تكفيني.. نصفُ دقيقة.

على وجهي ظهرتْ تلك الرغبة قويةً فيما يبدو. قرأها الحمار ذاتَ يوم، وأنا متكئٌ بظهري أمامه على جذع شجرة في الكَرْم.

رفعَ الخبيثُ رأسَهُ، وهزَّهُ في الهواء قائلاً بعينيه: تُكْرَم. طلبك عندي. صدرك المحروق سأبلُّه ببعض القطرات.

كان صاحبي أحمد قد ذهب إلى الدوالي يملأ سلةَ العنب من عناقيد كَرْمهم البيضاء والحمراء.

قلتُ لنفسي: لاا. هذا غيرُ معقول. صحيحٌ أنَّ لهذا الحمار باعاً في الأعاجيب، ففوقَ نظراته الذكية كثيراً ما يصنع مفاجآتٍ سعيدة لي ولأحمد، فمثلاً قد يلمح في أعيننا رغبةً في سماع الأغاني. فجأة ونحن على ظهره ينعطف بنا إلى مكانٍ فيه عرس! وقد يقرأ على وجهينا حنيناً إلى كرة القدم، فإذا به يحملنا إلى أقرب تلة من الملعب لنشاهد مباراة، وكأنَّ ظهرَهُ جزءٌ من كراسي المُدرَّج يقدِّمُه لنا بالمجان!

كلُّ هذا صحيح. أما رغبتي أنا فمعقَّدة ومستحيلة عليه. من أين يأتيني بنهد؟ هل سيُريني- لا مؤاخذة- نهدَهُ أم نهدَ زوجته الحمارة؟!

انطلقتْ فجأة من خلف ظهر الحمار أصواتُ مشاجرة تجري في مكان قريب. الأصواتُ كأنها فتحتْ ستارةَ مسرح عن مشهد غريب! اندفعتُ أنا وأحمد لنرى ما يحدث.

في الكَرْم المجاور فتاتان تتشاجران تحت شجرة، أخذَتْهما موجةُ عنفٍ جنونية! في الغرفة القريبة منهما المسماة بشُقَّة الكَرْم لا يوجد أحد.

الفتاتان سمراءُ وبيضاء، جميلتان، وشرستان، وقاسيتان.

تجمَّدنا أنا وصديقي أمام منظر اللكمات والصفعِ وشدِّ الشَّعر! جنونُ العنف جعَلَهما لا تشعران بوجودنا!

زادتْ حدةُ المعركة..!

بغتةً مدَّتْ إحداهما يدَها إلى ثوب عدوَّتها عند الصدر، وجذَبَتْهُ نحوَها، فتمزق، وانبثق إلى الأمام شيئانِ باهران أصابا أشجارَ الكَرْم بالذهول!

خمسُ دقائقَ.. أكثرُ والشيئانِ الساحران تحت مرمى البصر.. مرمى الشوق والسعير يتأرجحان، يقتربان ويبتعدان، يرقصان رقصةً وحشية!

تدخَّلنا أخيراً، واستطعنا إيقافَ المشاجرة. عدتُ منتشياً، أمشي فوق النجوم، وزجاجةُ عطرٍ سكبتْ نفسَها في صدري، ومع وصولي إلى الحمار قطفتُ أقربَ وردة، ووضعتُها بين أذنيه.

نظرَ إليَّ قائلاً بلغة عينيه الرائعة: هل انبسطت؟

- جداً. (قلتُ له).

- ولكنك نظرتَ أكثرَ مما ينبغي.

ضحكتُ، وفي البيت وجدتُ نفسي فوقَ السجادة أتمتمُ، وأستغفر!

***

قصص قصيرة جداً (2)

خسوف

تسابقت العيونُ لرؤية المنظر الفريد، تسابقت الكاميراتُ لالتقاط الصور، كلماتُ الأدعية طارتْ إلى الملأ الأعلى بأجنحة الخشوع.

ثمةَ امرأةٌ سورية أنهكت الحربُ أعصابَها اضطربتْ بشدة حين تغيَّرَ لونُ القمر إلى الأحمر، صرختْ:

- دم.. دم! يا لطيف!

ثم هربتْ إلى الداخل، كأنها تخيَّلتْ رجلاً هجمَ بسكينه، وذبحَ القمر!!

***

الفلَّة المُكبَّسة

أَحبَّها قبل أن يتزوجا.

وأَحبَّها بعد أن تزوجا

وقد أطلقَ عليها أوصافاً كثيرة، أقربُها إلى قلبه: (الفلة المُكبَّسة)، فهي مثلُها ذاتُ رائحة طيِّبة، وجميعُ ملامحها ناعمة وملتفَّة على بعضها. كان يداعبها أحياناً، فيقول:

(أنتِ ابنةُ حديقة، لستِ ابنةَ امرأة).

أو (بطنُ أمكِ ينجب الأزهار، وقد أنجبَكِ لي خيرَ زهرة).

بعد ثلاثين سنة من الزواج أصاب الفلةَ ذلك المرضُ الوبيل: السرطان، ولها أُجريتْ عمليتان جراحيتان.

بكى عاشقُ الفلة، وخلطَ الجرعاتِ الكيميائية بدموعه، فإذا بها تتماثل للشفاء، ولكنْ آه.. لم تعد الحبيبة كما كانت، صارت نحيفةً جداً، وشعرها المُسْبَل سقط، ثم نما مُجعَّداً.

نظرَ إليها كما ينظر رسامٌ إلى لوحته ذاتَ صباح، مرَّرَ أصابعَه بخشوع فوق تجعيدة الشعر، هَمَس:

- مع الربيع يعود الفل لازدهاره، والربيع سيأتي باكراً هذا العام.

***

خريطة

إلى أذنيه تهادى أذانُ العصر وهو لاجئٌ في بلد غريب.

الصوتُ عذبٌ خطفَهُ إليه.

هل هو على مقام الصَّبَا حيث الخشوع أم على مقام السيكا حيث التأمل؟

ارتسمتْ داخلَ عينيه الخريطةُ السورية الممزقة.. خريطةُ بلاده، ذرف دمعة، هتف قلبُه:

- يا رب.

سحبتِ الدمعةُ أختاً لها بل أخوات.

في شريطٍ سريع مرت ذكرياتُ عمره الطويل في بلدته الجميلة.. بلدةٍ حوَّلَتْها الحرب إلى خرائبَ محترقة لا تعرف نفسَها! ارتجَّ صدره كأنما ضربتْهُ زوبعة. وجدَ نفسَهُ أمام المئذنة، فتسلَّقَها بعينيه، ثم بقلبه. في الأعلى تمتم القلب:

- ربما أنا الآن أقرب.

أخذ يهتف والعينان تسيلان:

- بلادي يا رب.. بلادي.. بلادي.

***

أميرة من خارج القوائم

في حفلٍ لانتخاب أميرات الجمال.. جمالِ المدن لا الصبايا خالفَ البروتوكول، واختارَ اسماً من خارج القوائم!

أميرتُه التي اختارها مخلوقةٌ من صلصال المحبة، عيناها سلةُ أغنيات، صدرها صندوقُ حضارة. لها طلَّةٌ حلوةٌ.. حلوة، فهي تلبسُ ثوباً أخضر، وبين رعيتها تعيش، تعمل بجانبهم في الحقول، تأكل من خبزهم الأسمر، تضحك معهم، وإذا بكوا مسحتْ دموعهم بمناديل عطفها، أميرة اسمُها: إدلب[1].

***

(1) مدينة زراعية في شمال سورية، وهي بلد الكاتب.

الوردة

على عكس كثيرين أنا شديدُ التعلق بعيد الحب، أهجمُ عليه، وأعانقُه، وأكسر بالعناق برودةَ شهر شباط الذي يأتي فيه.

وذاتَ عيد كان الجيب خالياً، فقدَّمتُ لزوجتي وردةً بسيطة جداً من الورق، صنعتُها بنفسي، لكنني حين قدَّمتُها لها بلطف شديد فاحت الوردة عطراً، واخضرتْ أوراقها.

في اليوم الثاني وضعتُها في كأس صببتُ فيه ماءَ الروح، فازدادتْ بهاءً، وعطراً، وتفتحاً.

حكيتُ للأصدقاء عنها وللعصافير، فتفوقتْ على ورود الطبيعة، وصارت أميرةً عليها.

فجأةً جاءت المحنة السورية، قذفَتْنا الهجرةُ بقدمها إلى مكان بعيد، وظلت الوردةُ وحيدة.

على الماسينجر أخذتْ تصلني كلَّ يوم تقريباً رسائلُ عتاب من صبيَّة تدَّعي أنني هجرتُها بعد أن أحببتُها. أنا؟! وهل عند النازح وقتٌ للحب؟!

اكتشفتُ أخيراً أن الوردة هي صاحبةُ الرسائل، وأن الفجيعة علَّمتْها الكلام وكتابةَ المكاتيب.

***

إعدام

هي رفيقةُ عمره، لكنه قرر أن يقتلها.. يقتلها.. يقتلها!

سيفعل ذلك عن عمد!

وحين تختلجُ اختلاجاتِها الأخيرة سيراقب المشهد بارتياح!

إنها مجموعةُ الحِكَم العربية، ولوائح الوصايا، والصبر والتصبير.

لقد جرَّبَها أثناءَ المحنة الطاحنة التي اجتاحتْ بلده سوريا، فوجدها حبوبَ دواءٍ محشوةً بالهواء!

زادَ الجرعةَ، فربما....

استعملَها حبوباً، ثم حقنةً في العضل، فربما....

وضعَها على النار، واستنشقَ الخلاصةَ من بخارها، فربما، ربما....

لكنها أثبتتْ له بشكل قاطع أنها داءٌ فوق الداء، لذا قرر أن يتخلص منها.

ملأ تلك الحِكَم والوصايا في دمية لها شكلُ إنسان، وعلَّقَها على حبل.

مكان الإعدام: الساحة الرئيسية في روحه.

تاريخ الإعدام: سنة 2018

ولَمَّا دفعَ الكرسيَّ من تحتها صاح بكامل كيانه:

- إلى جهنم.

***

من قصص الآلهة
كلٌّ شيء لشَانَاهْ

تسرَّبَ الشك إلى عقل الفتى: (آزْتُور).

اصطحبَهُ أبوه منذ الصغر إلى معبد الإله: (شَانَاهْ)، كما يصطحبُ الآباء أطفالَهم في تلك البلاد المسماة: بلادَ الشمس الشاحبة، وبعد خروجهما من المعبد الضخم المغلَّف بالغموض والجلالة ملأ أذنيه بهذه الجمل:

(شَانَاهْ الماءُ، والشجرُ، والأزهارُ الجميلة، ونحن من صُنْعِ يده).

(شَانَاه بلحظة واحدة يدكُّ الجبل، وبلحظة واحدة يعيده).

(شَانَاهْ عنده برميلٌ مملوءٌ باللهب، ومَنْ لا يعبده طوالَ الوقت يضعُهُ في البرميل).

التزمَ آزْتُور بالعبادة وطقوسِها الطويلة، لكنه بدأ يتخلَّف عنها بعد أن خطفتْ قلبَهُ الصبيَّةُ الحلوة: (تُولا.. تُولا)، ومعنى اسمها: (تغريد الطيور عند الصباح).

كانت تنهداتُ الفتى تتطاير في الهواء، ومعها قِطَعٌ من ضلوعه شوقاً إلى حبيبته! يبكي، فيذوبُ شيءٌ من عينيه بين دموعه!

ومرةً سأل آرْتُور نفسَهُ: إذا كان شَانَاهْ يستطيع عَمَلَ كلِّ شيء- كما يقول أبي- فلماذا لا يضع محبتي في قلوب أُسرة (تُولا.. تُولا)، فيقبلوا بي زوجاً لها؟ أو لماذا لا يخلق لي ولها أجنحة، فنطير بها، ونتزوج في نجمة بعيدة، وننجب أطفالاً نصفُهم ضوء، ونصفُهم بشر؟

بلَّلَ الفتى مراراً كفَّهُ بماء الزهر المقدَّس، ومسحَ صدرَهُ فوق القلب مباشرةً ليتطهَّر، وشَرَعَ يدعو شَانَاهْ بكلِّ ذرةٍ من كيانه مُكرِّراً ما يريدُه منه، ولكنَّ النتيجةَ خيبةٌ أكبرُ.. أكبر!

هل من الغريب بعدئذٍ أن يدخل الفتى آرْتُور في حالةٍ جديدة؟ صارت ضفادعُ الشك تسبح في قلبه، وتُطلقُ نقيقَها! صار يهزأ أحياناً من شَانَاه قائلاً: هل تسمع أدعيتَنا بالمقلوب؟ أم أنتَ لا تسمعها أصلاً؟ آهٍ كم تحبُّ الزينة والأضاحي بينما التعساءُ يحترقون كشموع صامتة!

ثم انتبه الفتى فجأةً إلى أمرٍ غريب: بين شَانَاهْ وبين مَنْ يُقدِّسونه تشابهٌ كبير، فهم مثلُهُ لا يأبهون بشيء، ويكرهون العشاق، ومهما دققتَ أبوابَهم لا يفتحون!

ذاتَ فجر هربَ آرْتُور وحبيبتُه فوق حصان.

بدا الحصانُ متعاطفاً معهما، فانطلق بسرعةٍ جنونية محاولاً إبعادَهما عن المطاردين من أهل الحبيبة.

كان آرْتُور في تلك اللحظة يناجي شَانَاهْ:

- يا مَنْ يُسمُّونكَ الأعظمَ، والأقدر للمرة الأخيرة سأجرِّبُك. كنْ معنا الآن، نجِّنا من سهامهم، وإلا فإنني سأقول: هذا الحصانُ أكثرُ شفقةً منك!

نهايةُ القصة تخبركم عنها جثتان اخترقَتْهما السهام، تدحرجتا فوق الشوك، وبقربهما حصانٌ لاهث يبكي فوقهما.

***

قِطَع غيار لكبار السنّ

ظَهْرُ أبي خلدون، رقبتُهُ، ركبتُهُ، كلُّها تؤلمه في وقت واحد!

صار جسمه السبعينيُّ آلةً موسيقية ينطلق منها صوت واحد هو: آخ!

حالةُ قلبه هي الأسوأ، هذا المحترم انسدتْ أكثر شرايينه، انتفخ وتضخم حتى بات أبو خلدون يتصوره تارة بحجم قرنبيطة، وتارة كبالون طفل منفوخٍ أكثرَ من اللازم.

أمام الوضع المتدهور أخذ الرجل العجوز يتابع بعضَ البرامج الطبية في التلفزيون، أدوية كالسحر ستنزل قريباً إلى الأسواق، عمليات جراحية مبتكرة ستعيد الشيخَ إلى صباه!

وذات ليلة بعد أن أخذ دواءَ القلب، وضع رأسه على المخدة بجوار تلة من اللحم والشحم هي زوجته، مرَّ النوم بيده على عينيه، فرأى في الحلم أمراً عجيباً..

كان مشتركاً في مظاهرة كلُّ مَنْ فيها شيوخٌ من أمثاله، خدود أكثرهم ناشفة، مخفِّسة، ملتصقة ببدلات أسنانهم! قاماتهم مائلة كأغصان شجر مكسورة، واللهاث من كل حدب وصوب!

قام هؤلاء بمظاهرتهم بعد أن علموا بأن الطب تقدَّمَ إلى حد كبير في مدينتهم، وتوفرتْ قطعُ غيار للبشر، لكنَّ أحداً لا يفكر في تقديمها إليهم.

فوق الرؤوس الشائبة والصلعاء ارتفعتْ لافتات كثيرة، عليها عبارات متنوعة:

* ذهبتْ صحتنا، لكننا أحياء.

* نريد عيوناً جديدة لنرى الطريق.

* نريد آذاناً جديدة لنسمع زقزقةَ العصافير.

* أعطونا سيقاناً لنركضَ ونرقصَ مع الصبايا.

* يا أهلَ بلدنا إذا لم تساعدنا الجهاتُ المسؤولة سنجلس وراء مكبرات الصوت نئن ونتأوه ونخنخن بأصواتنا ونمط سعالنا حتى نحرمكم من الراحة.

بدأ الناس يتجمعون للفرجة على المظاهرة، ومَنْ لم ينزل من بيته إلى الشارع مدَّ رأسه ونصفَ جسمه من النافذة.

مع زيادة المتفرجين زادتْ حماسة الشيوخ المتظاهرين، فأخذوا يهتفون بقوة مؤكدين طلباتهم، ثم صمتوا ورفع أحدهم صوته وكأنه يغني:

(طلِّعْ.. طلِّع في الختيارْ/ في عيونو ميةْ حكايةْ

يا شبٌ الزمنْ دوَّارْ/ بيرمي طيورْ معلاَّيةْ)

وصل الموكب إلى الميدان الكبير في المدينة، فأطلق الشيوخ من مناخيرهم وفي لحظة واحدة صوت (خن..ن..ن) أي أنهم بدؤوا ينفِّذون تهديداتهم.

بعد الخنخنة أرسلوا في الجو عنيناً طويلاً، ثم وحَّدوا حلوقَهم في وَصْـلة سعال عجيبة جعلتِ الناسَ يمسكون رؤوسَـهم!

ظهرَ عندئذ رجلٌ وقور من متوسطي الأعمار، تقدَّم نحو المظاهرة وخلفه شاب يحمل دفتراً، قال:

- مهلاً أيها الشيوخ الأعزاء.. أنا مندوبُ رئاسةِ أهل المدينة، جئتُ لأتفاوض معكم. لا توجد في مستودعاتنا- مع الأسف- قطعُ غيار كافية لكل ما ترغبون في تبديله من أجسامكم، لكننا لن نردَّكم خائبين سنعطي كلَّ شيخ منكم قطعةَ غيار واحدة يدبِّر نفسه بها، عين جديدة مثلاً أو عمود فقري أو ركبة. هيا سجلوا ما تريدونه عند الشاب الذي يحمل الدفتر من ورائي.

تردد الشيوخ في قبول العرض لحظاتٍ قليلة، تبادلوا خلالها النظرات، ثم وافقوا، فبدأتْ عملية التسجيل.

كان الشاب الذي يقوم بذلك خفيفَ الظل، فحين يتلقى الطلب من أحدهم يرفع صوته وهو يكتبه على الدفتر..

(أنف لأبي سمير)

(رقبة طويلة للعم يوسف)

(بطة ساق للخال محمود)

(شعر لصلعة السيد فؤاد)

وصل الدور إلى أبي خلدون، فسأله الشاب:

- وأنت ماذا تريد يا عم؟ اطلبْ وتَمَنَّ.

أشار أبو خلدون إلى صدره قائلاً:

- قلب. يلزمني قلب. هذا الذي في صدري صار في حالة يُرثى لها.

صاح الشاب وهو يسجل:

- قلب من أحسن نوع للعم أبي خلدون.

استدار أبو خلدون، مشى خطوةً واحدة، لكنه رجع وعصفور القلق ينقر عينيه:

- اشطبْ.. اشطبْ أرجوك. أنا لا أريد قلباً، لا أريد أيَّ شيء.

طار حاجبا الشاب إلى فوق أو طيَّرهما هو بأسلوبه الخفيف الظل، سأل:

- ما الحكاية يا عمنا؟ لماذا لم تعد تريد القلب؟! هل تظن أننا- لا سمح الله- سنعطيك قلباً له أذين واحد؟ أو قلباً سبق استعماله من (البالة الطبية)؟ والله لن أشطب إلا إذا عرفتُ منك السبب.

بلع الرجل الكبير ريقه، قال:

- قد لا تفهم ما سأقوله يا ولدي.. بيني وبين قلبي القديم عِشرةٌ طويلة. صحيح أنه تالف مهترئ، لكنه حنون حساس، يجعلني مثلاً أسلطن على أغاني أيام زمان عند محمد عبد المطلب وأم كلثوم، يجعلني أملأ الأنفَ ولا أشبع برائحة حارتي رغم عيوبها وعيوب أهلها، والأهم أنه يساعدني على تحمُّل أكبر بلوى في حياتي: زوجتي المصونة أم خلدون. آه لو رأيتَ منظرها. إنها دبة حقيقية، ولسانها ألعن من شكلها! بهذا القديم المهترئ أصبر أيضاً على الأقرباء الأعداء.. أعني أولادي وزوجاتهم. إنهم يسرقونني وعيوني مفتَّحة، ولا يعجبهم أن أصرف ولو قرشاً واحداً على نفسي! تصوَّرْ أنهم ينزعجون إذا ذهبتُ إلى الطبيب أو اشتريتُ دواءً للقلب الذي أتحملهم به! لأن الدواء قد يؤخر ما يتمنونه لي وهو أن يقوم السيد عزرائيل بزيارتي، ومع هذا كله أفتح باب بيتي لهؤلاء، ويضحك سني لهم أحياناً. أيُّ قلب جديد يفعل هذا؟ أيُّ قلب؟!

كرجتْ دمعةٌ من عين أبي خلدون، والتصقتْ لحظة بقرنة أنفه، فأسرع الشاب يقول:

- اطمئن يا عم.. لن تتغيرَ ذرةٌ من مشاعرك مع القلب الجديد، فالعلم له رأي قاطع في هذه المسألة: عواطف الناس مكانها في رؤوسهم لا في قلوبهم.

لم يطمئن أبو خلدون، بل ابتعد واضعاً يده على صدره، وكأنه يخاف أن يأخذوا قلبه رغماً عنه، أخذ يركض ويلهث، ومع لهاثه انتفض واستيقظ.

ألقى نظرةً على ما حوله، فرأى بجواره تلةَ اللحم والشحم قد دفعتْهُ إلى طرف السرير حتى كاد يسقط على الأرض! وسمعها تشخر شخيراً عجيباً، فتمتم: رباه ما أغباني.. كان يجب أن أقبل بالقلب الجديد لعله يريحني منها.

***

غابت الحبيبةُ يوماً واحداً

اعتاد أن يبدأَ نهارَهُ بها كما تبدأ الدنيا نهارَها بالشمس.

القهوةُ التي يشربانها صباحاً في بيتهما تشتاقُ إليهما، كما يشتاقان إليها، فترجو الصباحَ أن يطلعَ باكراً لتراهما في مجلسهما البسيط الدافئ.

زوجانِ هما، وحبيبانِ، وصديقان، وشريكا تعاسةٍ، وفَرَح.

هما قوسٌ، وكمنجة تتطايرُ منهما الأنغام منذ أكثرَ من ثلاثين عاماً، والكونُ كلُّهُ ما زال يصغي، وعلى قلبيهما يقذفُ زهراً أبيض!

استيقظ صباحَ الأمس متوعكاً! شيءٌ كالأنفلونزا منعَهُ من مغادرة السرير، أخذَ حبةَ الدواء، وظلَّ تحت الأغطية حتى صباح اليوم التالي! وهكذا.. غابتِ الحبيبةُ عن عينيه يوماً كاملاً!

يوم؟! يا لطيف! هذا اليوم له حساباتُه الخاصة عند المحبين. إنه ليس أربعاً وعشرين ساعة، لكنه أربعٌ وعشرون خسارة! أربعٌ وعشرون آهة! أربعٌ وعشرون حُرقة!

مع رجوع العافية إليه قالت له: حمداً لله على السلامة.

قال: شكراً، لكننا خسرنا يوماً من الحب.

سألتْهُ: كيف؟ وضحكتْ ضحكتَها الدافئة التي تفتحُ شهيتَهُ للحياة.

قال: من هنا نبدأ. أنتِ تضحكين مرتين في الساعة على الأقل، فباستثناء ساعات النوم الثماني يعني أنني خسرتُ اثنتين وثلاثين ضحكة!

فتحتْ عينيها مدهوشةً كربيعينِ أمامه، فتابع:

- وكلما ناديتُكِ أجبتِني: (نعم يا عمري). كلمةٌ تسحرني، ومعها ينبتُ لعمري أجنحةٌ، فيرفرفُ كالفراشات. لنقلِ الآن: إني أناديكِ عشرين مرةً في اليوم، فكم من (يا عمري) الحلوةِ الرائعة خسرتُ؟!

أطلقتْ سِـــرباً من الضحكات، وتورَّدَ خداها، وكأنه يصارحها بالحب لأول مرة!

انفجرتْ عواطفه عندئذ دفعةً واحدة، فأضاف:

- الشقاءُ خطفَ من حياتنا الكثير! الحربُ خطفتْ! الأحزانُ خطفتْ! آه يا غالية حياتُنا كانت لهؤلاء اللصوص، ولم تكن لنا! حياتُنا....

أراد أن يكمل، لكنَّ دمعةً تدحرجتْ من عينه كقطرة نار، مسحَها، ثم قال:

- أشعرُ أنَّ قطارَ أعمارنا يقتربُ من محطته الأخيرة، وأنا- مع سعادتي بالحب- أريده أن يُقدِّمَ لنا أمراً خرافياً، أريده أن يعود بحياتنا إلى الوراء.. إلى فجر الأعمار، ومن هناك ننطلقُ به أنا وأنتِ في رحلة حياة جديدة.. حياةٍ لن نسمحَ لأيّ لص بأن يسرقَ منها دقيقةً واحدة.

***

حوض الغسَّـالة

(فلسفة أصحاب الخط النظيف)

(1) المأزق

(أبو شوقي) المستخدَم في دائرة التنمية الثقافية متعَبٌ هذا الصباح. عَظْمُه يصيح: يا ودود، ولحمُه يصيح: يا ودود.

شيءٌ اسمه الحيرة يلعب برأسه، ورأسه بطيخةٌ صغيرة نبتَ لها في أعلاها شعرٌ قلَّما يقوم بتسريحه، وفي أسفلها ذقنٌ قلَّما يُقرِّبُ منها شفرةَ الحلاقة!

تتعاظم سحبُ الحيرة من حوله، تأخذ رأسَهُ، تبرم به كما يبرم حوضُ الغسَّـالة التي اشتراها لزوجته منذ أسابيع!

إنه موظف صغير، مستخدَم منحوس على باب الله أو باب القرش كيف يستطيع أن يقومَ بما هو مطلوبٌ منه؟! لقد صار يحسد التيوس التي لا تفكر. إنه يراها في بلدته الجبليَّة (أم الكرز) تنطنط بلا همّ ولا غمّ. أمَّا هو فكتفاه الهزيلتان فوقهما حِملٌ ثقيل: مديره السابق: (عَنُّون أحمد عَنُّون) دفعوه عن كرسي الإدارة إلى وظيفة عادية بعد أن فاحت حوله سحابةٌ من الروائح القذرة، وهو يريد منه أن يتابعَ دورَ اللاقط السمعي البصري، فينقلَ له أصغرَ التفاصيل عما يجري في الدائرة، وخاصةً ما يتعلق بالمدير الجديد الأستاذ: حكمت. أمَّا الأستاذ: حكمت فيبدو عفريتاً رغم هدوئه الظاهر ورزانته، فقد علَّقَ له في

غرفة البوفيه المخصصةِ لأعماله هذه الآية الكريمة: (ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً)! بل إنه أضاف صورةً كاريكاتورية لمقص يهاجم لساناً طويلاً، فيبتره من نهايته، ومن مكان البتر سقطت قطرات دم!

نهض أبو شوقي من فراشه محتاراً بأفكاره، حاصَ ولاص كفأر لا يجد ثَقباً ليدخل فيه، أخذته رِجلاه إلى النافذة، ثم إلى الفراش، ثم إلى النافذة من جديد، ثم اندفع إلى المطبخ، شغَّلَ الغسَّالة، وجلس بجانبها، ونفسه تهمس بهذه الجملة: لا بدَّ من حلّ. أخذ ينظر إلى حوضها الفارغ وهو يدور.. يدور، وفجأةً في حوض دماغه نبتت فكرة!

- الله! رائع يا رب!

انطلق بقدمين من سعادة إلى غرفة الجلوس، وهناك تصدَّرَ كراديو جديد جاؤوا به إلى المنزل أيام زمان، نادى أم شوقي، فصنعت له كأسَ شاي شربها بشَفَطات مسموعة تترجم إيقاعَ سروره. أمَّا فكرته الحلوة فلم يبح بها لأحد.. حتى لأم شوقي نفسها، لكنه سيبدأ العملَ بها حالَ وصوله لدائرته هذا الصباح.

(2) الميثاق

كشيءٍ عجيب.. كشيءٍ خيوطه من الواقع والخيال يمرُّ في رأس أبو شوقي بين حين وآخر مشهد الميثاق. خلاصة المشهد على الشكل التالي: يقف صفّ من كُتَّاب التقارير أصحابِ الخط النظيف، كما يسمونهم، بينهم أبو شوقي، وأمام كلٍّ منهم طاولة صغيرة، وورقة، وقلم عملاق

كالذي يعرضونه في دعاية صناعة الأقلام. أمام الصف يظهر (عَنُّون أحمد عَنُّون). يقول عَنُّون ووجهه أحمر كأنه شرب خابيةَ نبيذ:

- اختاركم المولى لأمر عظيم. نحن جميعاً نأكل من خيرات هذه الأرض، ومنها أيضاً تعيش خرافنا، ودجاجاتنا، وأصغر نملة من نمالنا. ما رأيكم إذا عرفتم أن الدنيا كلَّها تنظر بعينٍ حمراءَ لأرضنا؟ هل نخاف من الدنيا وأهلها؟ خسئوا والله. أرضنا يجب أن تردَّ لهم نظرتَهم بمثلها. أرضنا يجب أن تتمتع بالقوة، واااالمَنَعَة.

وقعت كلمة: (المَنَعَة) من نفس أبو شوقي موقعاً مَهيباً. إنه لا يعرف معناها بالضبط، لكنه شعر بأنها تدل على شيء عظيم، ربما لا تتسع له قفة كبيرة أو شاحنة صغيرة من نوع: (طَرطُورة).

تابعَ عَنُّون: الدفاعُ عن الأرض لا يكون بالأسلحة النارية فقط، وإنما بالأسلحة الورقية أيضاً، وبالأقلام. هناك مندسُّون في صفوف الناس في كلِّ مكان، يهمهم خدمةُ الخارج، وعلينا أن نفضحهم. لا..لا. نفضحهم لا يكفي. علينا أن نسلخ جلودَهم قبل أن يسلخوا جلودَنا، ونجعلَ من لحومهم (بسطرما) نقدِّمها للقطط والكلاب.

فجأةً تقدَّم عَنُّون من أبو شوقي قائلاً: أنت يا سبع تستطيع أن تفعل الكثير. الدائرة التي تشتغل فيها مسؤولة عن الصحة الثقافية للمجتمع، فإذا تخربت هذه لحقتها الصحة الجسمية، فتخربت أيضاً! ثم يتخرب الاقتصاد، والسياسة، والعياذ بالله! صحيح أنك من بلدة أم الكرز الصغيرة، ولكنَّ أمَّ الكرز جزءٌ من منطقة أم التين والزيتون، وأمُّ التين والزيتون جزءٌ من أرضنا العزيزة أم المجد والتاريخ.

هنا تهدَّجَ صوتُ عَنُّون، ذرف دمعة، ثم قال: أمُّ المجد والتاريخ أمانةٌ في أعناقكم. هيَّا ردِّدُوا هذا الميثاق.

ارتفعت أصواتُ الجميع: أمُّ المجد والتاريخ أمانة في أعناقنا.

بعدها صاح عَنُّون: أمامْ سر، فاتجه الجميع نحو الطاولات، وحملوا أوراقهم باليد اليسرى، وباليمنى حملوا أقلامهم الضخمة، كما يحمل الجنديُّ بارودتَه في العرض العسكري بإلقائها فوق الكتف اليسرى، وسَنْدِها من الأسفل، ثمَّ مضَوْا يدقون الأرض بخطوات واثقة: دُمْ بُمْ.. دُمْ بُمْ!

(3) في السيارة

في الطريق من أم الكرز إلى أم الزيتون حيث يقع مقرُّ دائرة التنمية الثقافية التي يعمل فيها أبو شوقي فجأةً اختفى ركابُ (سيارة الصالون)، وملأ المكانَ كلَّه وجه مخيف هو وجه عَنُّون أحمد عَنُّون! أمسك عَنُّون أبو شوقي الجالس على الكرسي من قميصه مستعملاً رؤوسَ أصابعه فقط، وكأنه يمسك فأراً، زمجر وعيناه تسبقان فمَهُ إلى الكلام:

- خير يا طير؟! من شهر لم يصلني شيءٌ منك! هل أنت نائم؟ أم مسطول؟ أم أنَّ أمَّ المجد والتاريخ هانت عليك يا ظالم؟!

تمتم أبو شوقي، وكأنَّ عُقَدَ الدنيا كلَّها حلَّت على لسانه:

- بْرْ.. بْرْ.. بْرْ.

صاح عَنُّون بوحشية:

- لا تبربر. ستقول لي: إنهم أباليس يأخذون حذرَهم. شطارتك يا دب تظهر في استكشاف الأباليس. قل لي- بالله عليك- لولا أن هؤلاء يقومون بأمور سيئة لماذا يأخذون حذرهم؟!

ثمَّ انقضَّت أصابعُ عَنُّون على رقبته، وأمسكتها من الأمام:

- اسمع يا صعلوك. الأمر لا يحتمل التساهل. مَنَعَةُ أرضنا في خطر. معك ثلاثة أيام أريد ثلاثين تقريراً مكتوباً عن كلّ يوم من الأيام الماضية، وإلا فأنت تعرف ما عندي، سأضغط على رقبتك ضغطةً صغيرة،، فأجعل روحَك تخرج من قفاك مثلَ الصوص. هل فهمت؟ مثلَ الصوص!

بعد ذلك قرَّبَ وجهَهُ هامساً بجملة رهيبة: إساءتك لصاحب العَظَمَة موثَّقة عندي في الموبايل.

اختفى عَنُّون كما ظهرَ بطريقة عجيبة، بينما شعرَ أبو شوقي بامتلاء مثانته من الخوف، فهبط تركيزه كلُّه إلى قسمه الأسفل محاذراً أن يبول على نفسه!

(4) كسل عضلي

حين وصل أبو شوقي إلى دائرة الثقافة فتح البابَ الخارجيَّ، وبدأ نهارَهُ بفاتحة من اللعنات قذفَها في وجه المكان:

يلعنك يا عَنُّون.

يلعنك يا حكمت.

وقبل الجميع يلعنك يا أبو شوقي.

نظرَ في المرآة إلى وجهه الذي لم يغسله كالعادة، تمتم:

- هذا وجه تيس. قسماً بالله لو كنتُ مكانَ أم شوقي لما أدخلتُكَ إلى البيت، ولما أطعمتُكَ رغيفَ خبزٍ واحد. مطلوبٌ منكَ الآن أن تجرح، وتخرمش. لا بأس. المهم أن لا تقع أنت. حكَّ رأسَهُ الذي يتصف بالغباء مع لحسة أو لحستين من ذكاء صناعي مستورد من شغله في نقل الأخبار، شدَّ قامتَهُ إلى الأعلى مزمجراً: أنا لها. سأبدأ بتنفيذ الفكرة الحلوة التي خرجتْ لي من حوض الغسَّـالة، وحقِّ عظامِ جدِّي إنها غسالة مباركة.

مع قدوم الأستاذ حكمت أرخى أبو شوقي بدنَهُ، وتقدَّمَ منه كأنه كوسا مسلوق خارجٌ لتوه من الطنجرة! قال بكسل شديد:

- صباح الخير.

لَهَثَ بعد التحية، ومال بعنقه نحو اليسار، ولما سأله الأستاذ حكمت: خير؟ أخبره بأنه مريض، لديه حالةٌ من الكسل العضلي، وارتخاءِ المفاصل، هكذا أخبره الطبيب الذي زاره البارحة في أم الكرز.

تألم الأستاذ حكمت الذي يملك قلبَ فراشة، سحبَهُ إلى غرفته الخاصة قائلاً:

- شفاك الله. اسمع يا أبو شوقي نحن في هذه الدائرة الصغيرة خمسة أشخاص لا أكثر. غرفة البوفيه عندك ضيقة. تعال واجلس هنا

في غرفتي، وتنفَّس الهواءَ النظيف من النافذة عندما لا يكون لدينا ضيوف.

أخذ قلبُ أبو شوقي يرقص على واحدة ونصف، فجلوسه في غرفة المدير سيفتح عليه طاقةً من السماء.. طاقةً ليس فيها نور أو مطر أو هواء عليل، إنما فيها مزراب تتدفق منه مادةٌ دسمة للتقارير سيسدُّ بها جوعَ عَنُّون. لعنة الله على عَنُّون.

بدءاً من ذلك اليوم استخدمَ أبو شوقي أساليبَ كثيرة توحي بمرضه وغفلته ليلتقط ما يريد من الأخبار، وأكثرها مضحك. من أساليبه:

* التظاهر بالنوم مع دَفَقاتٍ من الشخير الخفيف لا يلبث أن ينقطع حين يرن الهاتف، ويبدأ الأستاذ: حكمت في الرد على مكالمة!

* مسح الزجاج المركَّب على لوحة الإعلانات برخاوة شديدة، واللوحة تقع أمام غرفة المدير مباشرة، ذلك المسح يتكرر، ويتكرر حتى يكاد يهترئ الزجاج عند وجود زائر استقبله الأستاذ: حكمت!

* التأخر كثيراً في مغادرة غرفة المدير بعد تقديم القهوة للزائر، كمسح صورة صاحب العَظَمَة بيدٍ كسولة أو التظاهر بالتدقيق في توزيع الكراسي والطاولات أو أيِّ شيء آخر!

ومرةً صاح به الأستاذ: حكمت: ديُّوث! ثم لحقه إلى غرفة البوفيه قائلاً: ليس الخنزير وحدَهُ أقلَّ المخلوقات ناموساً، وضربَ بيده على الطاولة ضربةً هائلة قبل أن يخرج!

إذن.. لقد انكشفت كذبتك يا أبو شوقي، وكلُّ أساليبك صارت على البلاط! وهاهم الموظفون الثلاثة الباقون في هذه الدائرة يسألونه ساخرين على الطالع والنازل:

- طمِّنا.. هل شُفيتَ من الارتخاء العضلي يا روح الروح؟ أخبرنا -برحمة والديك- هل تلحق نفسك إلى التواليت أم تعملها على ساقيك؟!

(5) ابن يلوم أباه

أفظع من كلِّ البلاوي السوداء، والزرقاء، والمبرقشة التي نزلتْ على رأس بطل حكايتنا بلوى جديدة جاءته من قِبَل ابنه شوقي حيث نظرَ إليه بعينين صقريتين، وصاح به:

- حرامٌ عليك يا أبي. يا لطيف! ما هذا الذي تكتبه بزملائك؟!

وقع ذلك حين طلب الأب من ابنه أن يكتبَ له التقارير الساخنة المستعجَلَة التي ينتظرها عَنُّون والتي تأخرت كثيراً.. كثيراً جداً. إنه ضعيفٌ في الكتابة، وعادةً ينقل تقاريرَه لسيده مستخدماً البث الشفوي المباشر، لكنَّ السيد أصرَّ هذه المرة على البث الكتابي. هنا خطر للعميل الحائر أن يستعين بولده، وهو تلميذ في الصف التاسع، فجلس يملي عليه، فإذا به ينفجر كبركان!

أمامَ انفجارِ الولد بكى أبو شوقي كنهرٍ كان ماؤه محبوساً خلف الصخور، وقد سالت دموعه، فاختلطت بمخاطه، وأخذت تُنقِّط من تحت ذقنه!

شرحَ لولده أنه مرغمٌ على الأذى، مجبَرٌ على النذالة! فعَنُّون اللئيم يحتفظ في موبايله بصورة له لو أخرجها إلى النور لدمَّره تدميراً، وأزال اسمَهُ من سجلات الأحياء! قصة الصورة باختصار: أنه رفضَ التعاونَ مع عَنُّون في بادئ الأمر رغم إغراءاته، وشيطناته، وكلماته الطنانة الرنانة عن ضرورة الدفاع عن أم المجد والتاريخ، تلك التي يصدِّقها أحياناً، ويسخر منها أحياناً أخرى.

وذاتَ يوم كلَّفه عَنُّون بإزالة صورة صغيرة ملصقة على الحائط لصاحب العَظَمَة للإتيان بأخرى في موضعها. أثناءَ قيامه بعملية الإزالة أخذ له عَنُّون الكلب لقطةً من الخلف بكاميرا الموبايل! حَفِظَ اللقطة في الاستديو، وكتبَ تحتها: عدوٌّ لأميرنا يقوم بإزالة صورته!

تابعَ الولد وأبوه إنجازَ الثلاثين تقريراً، وهما مسحوقان، يقطران أسى، وقد كتبَ الصبيُّ تلك التقارير في خمس أوراق مستعملاً خطاً ناعماً، ومستفيداً من وجه الورقة وقفاها. عند الانتهاء طواها أبو شوقي، ووزَّعها على جيوب بدلته، ومع قدوم الصباح نهض متوعكاً كأنَّ بغلاً كان يجري طوالَ الليل فوق عظامه! ذهبَ ليرتدي بدلتَه، فقالت له أم شوقي ببرود:

- البس واحدةً نظيفة من الدولاب. بدلتك صارت في الغسالة.

اندفع كمجنون نحو الغسالة، فزوجته التي يصفها دوماً بأنها من نسل البهائم قلَّما تفتش جيوبَ ثيابه قبل وضعها في الغسيل!

فتح بابَ الغسالة بعد أن أوقفها، فكانت الطامة الكبرى.. كلُّ الأوراق التي قضى الليل في تعبئتها صارت مبللةً بالماء تغطيها بقعٌ

زرقاء، كأنها ميت أعدموه بالصاعق الكهربائي! تهاوى على الأرض ضارباً على صدره! ما تُراه يفعل الآن؟! عَنُّون ينتظر، ولن يرحَمَهُ! حكمت كشفَهُ! ولده يلومه! زوجته بعد أن سمعت ما جرى البارحةَ بينه وبين ابنه رشقته بنظرة احتقار، معناها: تكتب في زملائك يا سافل؟! لم يبقَ إلا أن تكتبَ من هذا الكلام الحلو في زوجتك أيضاً!

دفعَ رأسَهُ بحركةٍ يائسة في حوض الغسالة الممتلئ برغوة الصابون، لعله يعثر على ورقة سليمة، لكنه لم يجد. حين سحبَ الرأسَ إلى الخارج بدا منظره كوميدياً وحزيناً أيضاً، ففقاعاتُ الصابون غمرَت جبينَهُ، وغطَّت خديه، وباتَ كأيِّ قطعةِ غسيل يحتاج إلى عَصرٍ، ونشرٍ تحت أشعة الشمس، ريثما يجفّ.

***

2019/6/6

صهيل الروح

نصحَهُ صديقه المتمشيخ أن لا ينظر إليهن. بنطلونات الجينز، التنانير القصيرة حريقٌ لا يحتمله مَنْ تجاوز الستين مثلُه. نصحَهُ عقله أيضاً، عمَّته التسعينية، لوائح الحكمة. لكنَّ قلبَه الغجريَّ يكره النصائح، ويؤمن بالجمال، والرقص، والموسيقا، وله منشور عاطفي يردّده ضاحكاً: عيونهنَّ بنسلين، وابتسامتهنَّ أنسولين، ولكنْ.. أين هُن؟

عيناه جائعتان منذ أشهر لمنظرٍ ساحر، أذناه متعطشتان لخبرٍ جميل، بينما فمُ الدنيا لا يجود بغير أخبار الحرب في بلده سوريا، يلاحقه بها إلى مكان لجوئه في أوربا!

صار مصلوباً فوق آهاته! فوق ظهره جعبةٌ من انكسارات، وجراح، وتاريخ حزين. وذاتَ أصيل وجد أمام عينيه أحلى منظر..!

كان في تلك اللحظة يستقلُّ الحافلة، وعبر الهاتف يرد على مكالمة لصديقه. الله ما هذا؟! تحت ناظريه مباشرة شاب وصبيَّة يتغازلان بطريقة لطيفة. لا.. لا. ملائكية، كأنهما من كوكب الزنابق والريحان!

الشاب كان بجانبه على كرسيّ مرتفع، والبنت واقفة أمامه، مكانها منخفض بالنسبة إليه مما أتاح له تأمُّلَ عينيها ووجهها بطريقة الانصباب. أي: كأنه سماءٌ تنظر إلى الأرض وقتَ الصباح! البُنيَّة

ليست ساحرة الجمال، لكنها جميلة، غير أنَّ انسجامَها الناعمَ، الراقي، العميقَ معه أضفى عليها لمسةً أعلى من السحر بمئة مرة.. بألف.

كانا يتبادلان كلماتٍ هامسة يفوح منها عطرٌ تراه العين قبل أن يشمَّه الأنف! سمفونية الهمس جننت عاشقَ الجمال العجوز، فكان يستمع إلى محادثة صديقه بنصف أذن، وربما بربع! ثم حَدَثَ الأروع والأحلى: مدَّ الشاب يمناه إلى خد رفيقته، ومرَّر سبابته فقط فوق ذلك الحرير اللحمي المُشرَّب بظلٍ خفيف من الخجل، فأطلقت البنت افتراراتٍ ألطفَ من لطيفة، وأعذبَ من عذبة، باركتها آلهة الأنوثة! ومع الافترار ظهرَ رتلٌ رائعٌ من أسنانها وسط شفتين فاتنتين مزينتين بلون خفيف من أحمر الشفاه.

ذابَ عاشقُ الجمال في مكانه، تلاشى على وهج لهب مجنون، وعاد إلى الحياة في لحظة واحدة. سأل روحَه: كم ألفَ قبلة يمكن أن يقطف العاشق من ضفاف هذا الفم؟ وكم ألفاً بعد ألف من الفم نفسه، ثم من عنق الغزال؟

آهٍ.. يا سيدَ السماء تأمُّلُ الجمال تصوُّفٌ، عبادةٌ، تحليق، ورقصٌ عذبٌ وسط الحريق. لو أنَّ حَمَلَةَ السلاح جربوا الحبَّ هل كانوا سيحتفظون بالبندقية بين أيديهم؟

فجأةً انتبه العاشقان إلى دفء نظراته، بل إنهما استلطفاها، وعلى غير ما يتوقع مدت البنت يدها، وقدمت له وردةً حمراء كانت تحملها بين أصابعها. الوردة هديةٌ من فتاها على الأغلب.

التقط الوردة شاكراً، ضمَّها إلى صدره، شمَّها بعمق، وأغمض عينيه، وكأنه يستنشق منها شباباً جديداً، وحين فتحهما لم يجد أثراً للعاشقين! أين اختفيا؟! الركاب في أماكنهم، والحافلة تسير!

هل كان يحلم؟ لكنَّ وردتهما بين يديه! تذكَّرَ أنه في الرابعَ عشرَ من شباط عيد الحبّ، وأنه مرَّ قبل قليل أمام بائع الأزهار، تذكَّرَ أيضاً زوجتَهُ التي قُتلت في القصف قبل ست سنوات، تلك التي كان يهديها كلَّ سنة وردة في هذه المناسبة.

حين وصل إلى البيت رأى في مزهرية فوق الطاولة خمسَ وردات حمرٍ ذابلات، فوضع وردتَه السادسة معهن، وتساقطت من عينيه حباتُ دموع.

***

مرآة لا تنام

أمامَ مشاهدِ المأساة في سوريا انطلقتْ من حَنْجرته صرخة، ذهبتْ شرقاً وغرباً، ثم تجمَّدتْ في مرآته!

ثلاثةٌ وعشرون عاماً عمرُهُ، واسمُهُ: فوزي. الاسم مكانٌ لسخريته، فهو لم يَفُزْ بأيِّ شيءٍ في حياته!

لو كانت الأسماءُ أمامه في علبة لاختارَ اسماً آخرَ يليقُ بخسائره المتلاحقة، وبالأمنيات الميتة على بابه.

تسألُه المرآةُ: مَنْ أنت؟ فيجيب: أنا لاجئ. قَذَفَني وطني من فمه، كأنني سنٌّ منخورة، أو كرةُ لُعابٍ، لا قيمةَ لها!

ساخرةً تقول له: أنا سأجبرُ خاطرك. سأسمِّيكَ: مَلِك العذاب. مَلِك. ما رأيك؟

تتحرر عندئذ صرختُهُ المتجمِّدة، يصفعُ بها وجوه الأشياء، والجدران، والشوارع، يصرخُ، ويصرخ حتى تصابَ حَنْجرتَهُ بالبحَّة!

في الليل يقرأ المُعَوِّذتين، لعلهما تحميانِهِ من هجمات مرآته اللعينة.

يأتيه صوتُ أبيه: كنْ قوياً.

يأتيه صوتُ أمه: عطِّرْ قلبَكَ بماءِ الزهر، فالشياطينُ تهربُ من الروائح الطيِّبة.

ينامُ بارتياحٍ على فراشه، شَخَراتُهُ تُسعد والديه، تبعثُ فيهما الطمأنينة.

في الثالثة ليلاً يتسربُ إلى رأسه شعاعٌ مرعبٌ، قادمٌ من مرآته، ثم يجد نفسَهُ أمامها وجهاً لوجه، تهتف به:

- تنامُ هانئاً؟ يا للعار! تنامُ؟ وعندي لكَ أسئلةٌ مهمة! بالأمس سألتُكَ: مَنْ أنت؟ واليوم أسألكَ: أين تسكن؟

يتلعثمُ فوزي، يتلفَّتُ حولَهُ، كأنه ينتظرُ عَوناً من جهةٍ ما، تصيحُ به المرآة:

- أنا سأخبركَ أين تسكن؟ مسكنُكَ ليس على الأرض. إنه فوقَ ورقة صغيرة جداً، اسمُها: (كَمْلِكْ)! على ظهر هذه الورقة تأكل، وتشرب، وتبني أحلامَ المستقبل! بالله عليك قل لي: حين تنام على ورقتك الصغيرة أين تضع رجليك؟ وأين تمدُّ ذراعيك؟

تتحرر الصرخةُ المتجمِّدةُ في المرآة، تلتحمُ بحَنْجرة فوزي، تخرجُ من فمه قويةً، هائلة وهو فوق الفراش، فتوقظُهُ، وتوقظُ أبويه!

تحتضنُهُ الأم، بينما صوتُ المرآة يلاحقُ أذنيه:

- أُذكِّركَ فقط.. للحمار وطنٌ، اسمُهُ: الإسطبل، وللفأرة وطنٌ، اسمُه: الجُحر. أما وطنُكَ أنتَ فدونَ ذلك.. دونَ ذلك!

بعد دقائق يتمالكُ نفسَهُ، تأتيه أمه بمنشفةٍ مبلولة تمسحُ بها وجهه. أما أبوه فيتمتم:

- لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، كلَّ يومٍ صرخةٌ هكذا في منتصف الليل! أصبحنا نخجلُ من جيران الحي.

في اليوم التالي يقرّر: لن يسمحَ لصرخةٍ ليلية أن تخرجَ منه.. إكراماً لأهل الحي، لأبيه الغالي، لنفسه المُتعَبة.

يأخذ حبةً للاسترخاء، يشربُ كأساً من النعناع، يُقلِّبُ في رأسه دفترَ ذكرياتٍ حلوة، فربما يَكوْنُ ذلك كلُّه سدَّاً بينه وبين مرآته المخيفة.

تمدُّ خيوطُ النوم نفسَها نحو أجفانه، تأخذُهُ موجةُ سباتٍ مريح، تَقْلقُ المرآة، تحاول أن تفعلَ به ما تفعلُهُ كلَّ ليلة، لكنها تفشل في البداية.

عند الرابعة صباحاً تنجح إحدى محاولاتها. بريقُها المزعج ينعكسُ على صفاءِ روحه، تتقدمُ منه وهي تسأله:

- هييه. نسيتَ ما جرى معكَ اليوم في مكان العمل؟ صاحبُ المحل شَتمَكَ قائلاً: سوري.. سوري! فعلَ ذلك بعد أنْ أخطأتَ، فناولتَهُ بنطالاً أزرقَ بدلاً من الأسود. هل تعرف؟ سوري عنده معناها: غبي، أو حمار، أو متخلف، أو إنسانٌ نتسلَّى بإذلاله، ويسكت! وبالفعل هو يعطيكَ نصفَ أجرٍ. لماذا؟ لأنكَ سوري! بنصفِ ابتسامة يقابلكَ صباحاً. لماذا؟ لأنكَ سوري! بنصفِ يده يصافحُكَ. أيضاً لأنك سوري! وأنتَ تَقبلُ.. تَقبلُ.. تَقبل! لأنك ذليلٌ بامتياز، ذليلٌ بسبعةِ نجوم!

تنتفضُ روحُ فوزي، تتحرَّرُ الصرخةُ من مرآته، تملأ حَنْجرتَهُ، ومن فمه تنطلقُ كزوبعة، تخترقُ نوافذَ البيت وحيطانَه! يصحو لاهثاً،

فيسمعُ صرخاتٍ أخرى تشبِهُ صرختَهُ، كأنها تحررتْ من مراياها.. صرخاتِ سوريين في الخيام، أو في بيوتٍ لا تشبه البيوت، أو في العَراء، صرخاتِ بشرٍ عَرَّى لحمَهم وعظمَهم عشاقُ السلاح، وزعرانُ الثورات، ومؤخراتٌ تُحالفُ الكراسي، وكتلةُ قيحٍ متجمِّدة، اسمُها: ضميرُ العالم! يخيِّل لفوزي أنَّ أمَّهُ وأباه يصرخان أيضاً!

ترتفع الصرخاتُ في السماء، كأنها مظاهرةٌ تحت النجوم! تَقْدحُ ناراً!

من الأعلى يهتف ملاكٌ مُسترحِماً: يا رب.

في تلك اللحظة تمرُّ سحابة، تُرخي جدائلَ المطر، كأنها تحاولُ أنْ تُبرِّدَ القلوب.. أنْ تُطفئَ نارَ الحناجر، لكنَّ الصرخاتِ تتواصلُ، تتواصلُ، تتواصل!

***

كَلِيْمُ الرَّمْل

تطير عصفورةُ فضولي من رأسي كثيراً هذه الأيام، وحول صديقنا السوري إسماعيل تَحُوْمُ، وتَحُوْم! إسماعيل ذلك الشابُ الدمث الطيِّب أستاذُ اللغة الإنكليزية.

تسألني العصفورة: قل لي.. قل لي. أليس غريباً أمر إسماعيل؟ إنه كلَّ يوم دون انقطاع في الخامسة مساء يرتدي لباساً خفيفاً، ويخرج من مسكنكم الجماعي نحو الصحراء! كأنه بعد عمل المدرسة عنده عمل في ذلك المكان الذي أولُهُ رمل، وآخرُهُ رمل!

تعرف العصفورةُ كما أعرف أنا أنَّ المسكن المذكور يعيش فيه خمسةُ أساتذة مساكين أو مناحيس، ثلاثةُ مصريين وسوريَّان يعملون في قرية ببلاد الملح نسيَها أولو الأمر، ونسيَتْها الحياةُ الجميلة، ونسيَتْها حتى الصحراءُ التي حملَتْها كما تنسى بعضُ الأمهات أحدَ أولادهن!

أنا مصري، اسمي: عبد الرحمن، وقد انتهزتُ ما بيني وبين إسماعيل من صداقة وتناغمِ قلوب، وسألتُهُ مرة، فقال: أخرجُ لأتسلى، فلم أقتنع بجوابه.

تَبِعْتُهُ ذاتَ خروج تاركاً بيننا مسافة.

أخذتْ عصفورةُ فضولي تكلِّمني، وتتولَّى الردَّ عني، وأنا صامت:

- آخ.. ليتني أعرف يا عبد الرحمن ما الذي يفعله صديقك المحترم هنا؟ قلتَ لي: إنه شاعر، ويكتب شِعراً في الصبايا. فهل لديه موعدُ غرام؟ ولكنْ مستحيل.. ألفُ مستحيل أن تأتي فتاةٌ إلى هنا. هل يلتقي صاحبك بعصابة؟ مستحيل أيضاً، فقد أخبرْتَني أنه رجل من فصيلة الورد. هل.. هل؟

غصَّتْ عصفورةُ فضولي بحيرتها، ثم قالت:

- لم يبق إلا أنَّ له ساعةَ جنون يومية، يخلو فيها إلى عفاريته، فيحاكيها، وتحاكيه.

- ممكن. (قلتُ للعصفورة وقد أعجبني الاحتمال الأخير).

تأملتُ فوق الرمل خطواتِ صديقي، حاولتُ قراءَتَها، كما كانوا يفعلون في علم القِيافة، لكنها أوصلَتْني إلى هذه القناعة: رجلٌ بريء، بسيط مرَّ من هنا.

جلس إسماعيل فوق صخرة، ظهرُهُ إليَّ، ووجهُهُ إلى الرمل. تحوَّلتُ كُلِّي في تلك اللحظة إلى جمرة.. إلى زوبعة.. ماذا بين إسماعيل، وبين الرمل؟!

اقتربتُ منه كثيراً ناسياً حذري، فرأيتُ من الخلف فكَّيه يتحركان، كأنه يتحدث، ورأيتُ ذراعَهُ اليمنى تتحرك، كأنها تدعم حديثَهُ بالإيماءات المناسبة!

نهض صديقي فجأةً، التفتَ إلى الخلف، فرآني!

كان وجهي ممتلئاً بحيرته العميقة وفضوله الجارف، رأى ذلك، فقال: تعال.

أجلسني بجانبه على الصخرة، وتمتم:

- باختصار.. أبحثُ عن معنى أبياتٍ من الشعر، وآتي لأسألَ الرملَ عنها.

صعقني الجواب، قلتُ له بعد أن عثرتُ على رأسي الذي سقط في مكان ما:

- أيةُ أبيات؟!

- أبيات[1] عمر أبي ريشة التي أثنى فيها على الصحراء وأهلها:

رعشـــــاتٍ في أضـــلعي ماجـــتِ
الصحراءُ فيها، وماجَ فيهـا افتتـاني
صـدقَ الحبُّ أنَّ مـوطني الأجـردَ
روضي، وجـــــــــدولي، ودِنـــاني
يُنبتُ المجدَ قبـل أن يُنبـتَ الــوردَ
ويُعطــي الثمــــــارَ قبــلَ الأوان

ظهرتْ في عينيَّ- على ما أعتقد- تلك الشتيمة التي يقولها أعداءُ الفن ضد الشعراء: إنهم مجانين، مهابيل، عقولُهم لا تساوي بصلة.

(1) من قصيدة طويلة للشاعر في خالد بن الوليد.

بابتسامة تلقى إسماعيل شتيمتي قائلاً:

- سامحك الله. اشتمْ كما يحلو لك. بعد قليل ستوافقني.

تنحنح، وباغتني بسؤال:

- قل لي: ألستَ مكسورَ الخاطر هنا؟! وأنا والآخرون ألسنا مكسوري الخواطر؟! ألسنا في هذا المكان- ولا أقصد قريتَنا فقط، بل موطنَ الصحراء كلَّهُ- نمسي على شوك، ونصبح على شوك؟!

أجبتْهُ بعينين استيقظتْ فيهما ينابيعُ الألم: بلى.. بلى.

فتابع:

- ألا يوزِّعون علينا مع العمل غُصَّة؟ مع الراتب غُصَّة؟ مع السلام غُصَّة؟ أليست النفس التي تتعامل معنا بعيدةً عن الطيبة والفضائل؟ غريبةً عما قالته الأبيات السابقة؟

ابتلعني ألمي، فصرتُ مجردَ آهة لا تعي غيرَ العذاب، هتفتُ:

- نعم، ثم نعم، ثم نعم.

قال إسماعيل بألم مماثل:

- وهذا ما يجعلني أجيء إلى هذا الموضع مرةً بعد مرة لأكلِّم الرمل، أسأله: أين معنى الأبيات؟ أين أجدُ في الوجوه المتعالية العابسة روضاً أو جدولاً أو ورداً؟ أين ألمح ثمراً قبل الأوان أو بعده؟ أكلِّم الرملَ أحياناً بعينيَّ، وأحياناً أنفعل بشدة، فأستعمل

لساني. أرجوه بمرارة طافحة أن يُخْبرَني: إذا كانت أسرابُ القيم قد خرجتْ من هنا فهل يُعقَل أن لا نعثرَ لها على أثر أو بقية؟ الشمس تترك أثراً عند المغيب. المطر حين يتوقف يُخلِّف علامةً على سقوطه. الربيع يُبقي على الأرض زهرةً ولو ذابلة تشير إلى مروره.

طفرتْ دمعةٌ من عيني، وجدتُ نفسي مع إسماعيل أتجه إلى الرمل مشاركاً صديقي في أسئلته.

لم يجب الرمل، بقيتْ أسئلتنا معلَّقةً، وربما سقطتْ في جمرة الغروب!

***

سَـرِيَّةُ أنبياء

وجهها المعروقُ الشاحب وهي على المقعد بجانبه أثارَ فيه عاصفةً من آهات.

هو وجهُ زوجته، وأميرةِ قلبه، يسافران الآنَ في الحافلة فوقَ أراضي دولةٍ آسيوية.

كان الوجهُ قبل سنتين قطعةً من فلّ وياسمين، تغار الشمسُ من عصافير الحُسن التي ترفرف فوقه طوالَ الوقت، لكنَّ المرضَ الخبيث غيَّرَ كلَّ شيء!

مدَّ النومُ خيوطَهُ لعينَيْ رفيقةِ العمر. أمَّا هو فوجد الوجهَ ينقلبُ إلى لوحةِ إعلاناتٍ ضخمة، وفوقَ اللوحة تقريرٌ مفصَّل عن مرضِ الزوجة، وتطوراتِه، وأصغرِ حيثياته، تلك التي يحاول أن ينساها!

حاصرَهُ حريقٌ موجع، فأخذ يصرخ في داخل روحِه مسترجعاً- رغماً عنه- ما جرى له ولزوجته:

يا أنبياءَ الله أغيثوني. تعالَوْا كلُّكم في سَـرِيَّةٍ واحدة، اصعدوا درجَ الغيم، ثمَّ درجَ السماء، قفوا أمام المولى، قولوا: يا إلهَ المنكسرين، لدينا حكايةُ واحدٍ منهم. إنه رجلٌ قصفته المصائبُ بمدافعها، وراجماتُ الألم بصواريخها! هذا الرجل بعد أنْ أحرقت الحربُ السورية عظامَهُ ستةَ أعوام فَقَدَ آخرَ قطرةٍ من صبره، فأسلمَ نفسَهُ للنزوح، أمسكَ بيد

زوجته رفيقةِ سعادتِه وشقائِه، وسارا معاً بينَ صخرِ الجبال، نجحا في الإفلاتِ من أعينِ حرس الحدود، ووصلا إلى برّ الأمان، لكنهما- بعد شهرينِ من الوصول- فُوجئا بعدوٍّ شرسٍ يتسلَّط على الزوجة.. عدوٍّ من اسمِهِ ترتجف القلوب: سرطان!

خطفَ السريرُ الأبيض الزوجة، فأُجريتْ لها عمليتان جراحيتان، ثمَّ دخلتْ في دوَّامة الجرعاتِ الكيميائية. بينما اختطفته بلا رحمة صيغُ التعجب والذهول، تلك التي تنطلق من قلبه ولسانه معاً:

سرطان يا دنيا؟!

سرطان وحرب!

سرطان وغربة!

سرطان وجيبٌ خالي الوفاض!

سرطان والعمرُ في آخره تضربه رياحُ الخريف!

سرطان! لعنةُ الله على السرطان. إنه يُحوِّل الإنسانَ الجبَّار في شهر أو شهرين إلى قطٍ، وأضعفَ من قط! آه.. كيف تسمح القدرةُ العليَّة بمرض من هذا النوع؟!

وهكذا.. كثرت السكاكينُ والحِرابُ الموجهةُ إليه حتى تكسَّرتِ النصالُ على النصال! وفوقَ النصالِ كان هناك ما هو أقسى..

في شهور العلاج الطويل- حيث صار مرافقاً لزوجته في المشفى- كانت الزوجة مسترخيةً فوق السرير، مخدَّرةً معظمَ الوقت أو ذاهلة، وكان عليه- في ظل الصمت الممتد- أن يتابعَ تراجيديا المشهد بكل

تفاصيلها: لقد ذابَ الجسدُ الجميل، وغدا بحجم وسادة! من الوسادة تخرجُ أحياناً رَشَقاتُ أنين! وحين تصحو المريضة تنخرط في نوبة بكاء، تقول: آه.. لقد ذهبَ شَعري! أرجوكَ لا تنظر إليّ. لفافةُ الشَّعر التي كنتَ تحبها في مقدمةِ رأسي لم يعد لها مكان! تتلمسُ- بعد ذلك- جسدَها بيدين مرتعشتين، كأنها تحاول أن تعرف كم التهمَ السرطانُ منه في ذلك اليوم!

بعدَ نصفِ ساعة أو أكثر تتعب المرأة من دموعها، فتعود للنوم، وقبل أن تنام تسحب الغطاءَ حتى قمةِ رأسها في حركة احتجاج. تمرُّ به استراحةٌ خاطفة كذلك الإطفاءِ السريع الذي يقع بين المَشاهد المسرحية ليجدَ نفسَهُ أمام الأفظعِ، والأمرّ!

لقد ابتلعَ الغطاءُ جسدَ رفيقته المريضة، لكنَّ ذلك العضوَ المؤلفَ من خمسِ أصابع/ يدَها ظلَّ ظاهراً، بأحدِ عروقه تعلَّقتْ أنبوبةُ المادةِ الكيميائية.. مادةٍ موجودةٍ في كيس كأكياس السيروم. الكيسُ معلَّقٌ على حامل.

تنظر اليدُ إليه، وفجأةً تتحوَّل إلى مخلوقٍ ناطق، له نظراتٌ قوية آسرة، يصعب الفكاكُ منها! تقول:

- هييه. أنتَ هل نسيتَني؟ أنا أوَّلُ شيءٍ لمستَهُ منها. هل تذكر قبل ثلاثةٍ وثلاثين عاماً عندما تصافحتُما، فانفتحتْ قناةٌ سريَّةٌ بين اليدين، مرَّتْ في القناة رسائلُ انسجامٍ، ولهفةٍ، وغرام؟!

بعد ذلك أنا كنتْ أمسكُ سمَّاعةَ الهاتف لتتصلَ هي بك، وتهمس: اشتقتُ إليك، وأنتَ كنتَ تذوبُ على الطرف الآخر، ويرتعشُ قلبك،

رعشاتك تصل عبرَ الخط إلى السماعة، فتهتز تلك الآلة، وأنا أهتز معها!

أنا أيضاً يا سيد- بعد أن تزوجتُما- كنتُ أطبخُ لك حتى الأكلاتِ التي لا تحبها هي كاللوبياء، ومُسقَّعة القَرْع. كانت حانيةً عليك، تحرص على ما يسرُّك.

أنا- خلالَ ستةٍ أشهر كاملة- ظللتُ أسهر على خدمتك بعد أن صدمتك سيارة ذاتَ شتاء. أُصبتَ يومئذ بارتجاجٍ عنيفٍ في الدماغ، ولم تعد قادراً على أن تشربَ كأسَ الماء بنفسك!

أنا.. أنا.. أنا.

لا يقطع كلامَ اليد التي صارت وكالةَ أنباءٍ أو وكالةَ ذكريات إلا حفيفُ خطواتٍ في ممر المشفى، ذلك الممر الموجود بين الغرف. الحفيفُ يعرفه جيداً، ويعرف صاحبَهُ. إنه قابضُ الأرواح يبحث عن ضحية يلتهمها! لحظةً أو لحظتين ترتفع حشرجةٌ لمريض أو مريضة، يلي الحشرجةَ صمتٌ بارد، فيعرف أنَّ صاحبَها صار في العالم الآخر!

ذاتَ ليلة ارتفعتْ حشرجتان في وقتٍ واحد، وهَمَدَتا في وقتٍ واحد! فصعقَهُ سؤال: كيف يستطيع قابضُ الأرواح أن يقومَ بمهمتين معاً؟! بل كيف يكون موجوداً هنا، وموجوداً في بلده سوريا يحصد مئاتِ الأرواح في الآنِ نفسه؟! كم ذراعاً لك أيها القابضُ الجبَّار؟! كم خطةَ موتٍ عندك؟! كم تحجُّرَ قلبٍ يسمح لك بالإجهاز على كلِّ هؤلاءِ الضحايا؟!

ثمَّ خطر له: ماذا لو اقتحمَ القابضُ الغرفةَ عليه، وعلى زوجته، وقبض بإصبعٍ واحدة روحيهما معاً، وأخرجَ الروحينِ لا من فميهما، ولكنْ من مساماتِهما على سبيل البهلوانية، واستعراضِ البراعةِ الفائقة؟!

أرعبَهُ الخاطر، شعرَ بجبينه صار تحت سيلٍ من عرقٍ ساخن، ثمَّ سقط في مكانٍ بعيد.. مكانٍ ليس فيه غرفةٌ، ولا مريضة، ولا حفيفُ أقدام مرعب يأتي من الخارج!

الغريبُ أنه صحا بعد قليل، وجدَ تلك اليدَ التي أنهكها المرض تُقدِّم له الإسعافَ اللازم!

كيف أحستْ رفيقةُ عمره بسقوطه وهي نائمةٌ، شبهُ مخدَّرة؟! كيف سحبته إلى أعلى بيدها الضعيفة.. يدٍ ما زالتْ أنبوبةُ الدواء معلَّقةً بها؟! كيف، وكيف، وكيف؟!

يا أنبياءَ الله لقد وقفَ تحت أبواب السماء كثيراً، ودعا المولى من أجلها، ولكنه لم يستجب، ربما منسوبُ الطُّهر في قلبه ليس على ما يرام، فناداكم أنتم سَـرِيَّةَ أنبياء كاملة لتجمعوا كلَّ ما في قلوبكم من طهر.. طهرٍ أنقى من ندى الزهر، ودمعِ العين، أنقى من براءةِ الخاطر في قلب فراشة، وبذلك الطهر كلِّه تتوجهون إلى المولى، تسألونه أن يُعيدَ لها ثوبَ العافية. لقد شُفيتْ، لكنها مهزولةٌ، مهزولةٌ، مهزولة! قولوا: يا خالقَ الربيع أعدِ الربيعَ والنضارةَ إلى بدنها. صاحبُها خسرَ بلدَهُ، وأهلَهُ، ومالَهُ، وعصافيرَ ذكرياتِه، وارتباطاتِه الروحية، فلا يريدها أن تكونَ خسارتَهُ الأخيرة.. خسارتَهُ القاتلة.

***

2018 /9 /12

المحتوى

- أغنية لم تتكوَّنْ بعد 5
- الحكايات المخبَّأة في الأصابع 7
- سأطلقُ النار على القادم الجديد 13
- ثوب النوم الزهري..... 17
- ابتسامتي التي التصقتْ بالمرآة..... 21
- على قدم واحدة 23
- جهة ليست في كُتب الجغرافيا 25
- في مَهبّ امرأة 29
- مصباح علاء الدين 43
- قيامة الجَمال..... 45
- الشمس تشرقُ من حروفكم..... 49
- صَفْنان بن صَافن 53
- ما لا يُمحَى..... 59
* **قصص قصيرة جداً (1)**..... 63
- مناطحة 65
- أم كلثوم 67

- احتراقات أب 69
- معمل الأيام 71
- المرأة النائمة..... 73
- تحريك الحصى..... 75
- جنَّة العصافير..... 79
- خد الإمبراطورة 83
- المتنبئ بالأغاني..... 93
- وردة لحمار المفاجآت السعيدة..... 97
*** قصص قصيرة جداً (2)**.....103
- خسوف 105
- الفلَّة المُكبَّسة.....107
- خريطة 109
- أميرة من خارج القوائم 111
- الوردة.....113
- إعدام.....115
- من قصص الآلهة كلٌّ شيء لشَانَاهْ 117
- قِطَع غيار لكبار السنّ 121
- غابت الحبيبةُ يوماً واحداً 127

- حوض الغسَّـالة (فلسفة أصحاب الخط النظيف) 129
- صهيل الروح 139
- مرآة لا تنام 143
- سَـرِيَّةُ أنبياء.....153

عن المؤلف

* الاسم الكامل: محمد نجيب كيَّالي، والده: حسن.

* الاسم الأدبي المُختَصر: (نجيب كيَّالي). وبه ينشر أعماله.

* مواليد: سوريا- إدلب 1953 ، يحمل شهادة جامعية في الأدب العربي من جامعة حلب 1980

* عضو اتحاد الكتَّاب العرب في سوريا منذ العام 1996

* قاص يعشق أدب الأطفال، والقصة القصيرة جداً، ومع هذين الفنين يكتب القصة والشِّعر للكبار والصغار، كما أنَّ له مساهماتٍ في المقالة، والمتابعات النقدية.

* نشرَ أعمالَهُ في عدد من الصحف والمجلات العربية، بعضها للصغار، وبعضها للكبار، منها: أسامة، الطليعي، سامر اللبنانية، العربي الصغير، المعرفة السورية، تشرين، دبي الثقافية، الإمارات الثقافية.

* حاصل على عدد من الجوائز العربية في مجال أدب الأطفال:

1. جائزة الشيخة ميرا بنت هزاع- الإمارات- 2006- كتاب: (طفل ونافورة)- قصائد- المركز الثاني.
2. جائزة الطيِّب صالح- السودان- 2016- كتاب: (العيد والأرجوحة)- قصص- المركز الثاني.

3. جائزة عبد الحميد شومان- الأردن- 2016- كتاب: (طفل يلهو)- قصائد- المركز الأول.

* له عدد من الكتب للجيلين اللذينِ يكتب لهما:

للكبار:

1. ميِّت لا يموت- قصص قصيرة جداً عن وزارة الثقافة في سورية 1996
2. لساني أَكَلهُ القط- قصص قصيرة ساخرة عن دار الشموس بدمشق 2001
3. قُبلة بالشماسي- قصص قصيرة جداً عن اتحاد الكتَّاب العرب 2010
4. خيوط ملوَّنة- كتاب منوَّعات عن دار نون4 بحلب 2011
5. بين زرقتين- قصص قصيرة جداً- دار ميسلون 2018
6. الحكايات المخبَّأة في الأصابع- دار فضاءات- الأردن 2019

للصغار:

1. الطبل المثقوب- قصص للأطفال- دمشق دار الينابيع- بالتعاون مع اتحاد الكتَّاب العرب 1991
2. أميرة السكَّر- قصص للأطفال- اتحاد الكتَّاب العرب 2003
3. طفل ونافورة- قصائد للأطفال- جائزة ميرا بنت هزاع- الإمارات 2006

4. العيد والأرجوحة– قصص للأطفال- جائزة الطيِّب صالح- السودان 2016

5. طفل يلهو- قصائد للأطفال- ضمن مجموعة مشتركة، عنوانها: مرايا الشِّعر واللون- جائزة عبد الحميد شومان- الأردن 2016

وله عشرةُ كتبٍ أخرى جاهزة للطباعة.